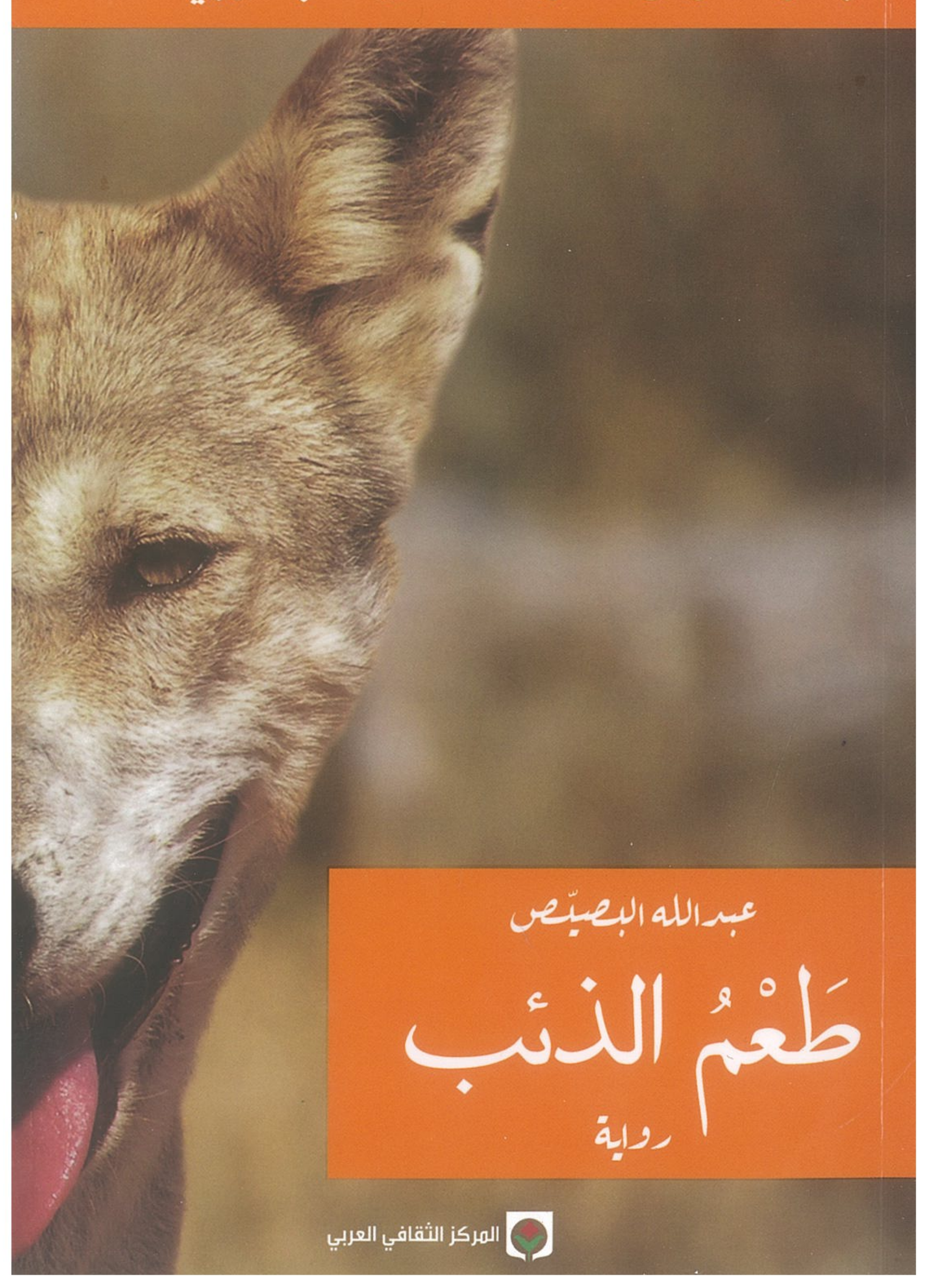
جائزة معرض الشارقة لأفضل كتاب عربي 2017



عبد الله البصيّص

طَعْمُ الذئب

عبد الله البصيّص

طَعْمُ الذئب

رواية



الكتاب

طَعْمُ الذئب

تأليف

عبد الله البصيّص

الطبعة

الثانية، 2018

عدد الصفحات: 224

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-812-1

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

أخيراً تظهر القرية، بعد مسيرٍ طويل تناوشَت روحَه فيه مِيتاتٌ كثيرة، تلوح له بيوتُها الطينيّةُ من بَعيدٍ مثل سِرب قطا مُلتمٍّ ينقُر الأرض.

يرمي ذيبان الزوّادةَ عند حافة بركة ماء واسعة صنعَتْها أمطار البارحة، ينزِع الفروَتَين من فوق كَتفَيه ويلقيهما عليها.

يجثو على رُكبتيه آخذاً نفَساً عميقاً، ويتنهّدُ هامساً:

«الآن.. الآن زال نصف همّي.. وبقي أن أعرف بعدها أين سأتّجه.. وسيزول الباقي».

يقرفص ويملِّئ عينَيه من المسافة الخضراء التي تفصلُه عن القرية، مجيلاً نظرةً شاردةً على العشب الذي زادت أمطارُ البارحة لونَه اخضراراً وريحَهُ طِيباً، يتذوق بعينه طعم أزهار النوير الصفراء وهي ترقص متمايلة بسيقانها، وأوراق الخزامى البنفسجية وهي تجُود بعذوبة عطرها للهواء، يحسّ بأنها تزيح الظلمة التي سكنت بصره وغمرت روحه بالمزيد من الظلمة، وتكشف السرور بنفسه، وتظهر على شفتيه المتشققتين ابتسامة النجاة.

بأصابع مرتعشة يفكّ الضِّمادَةَ عن كتفه، فيجِد الجروحَ

الأربعةَ قد خفَّ تورُّمُها، منزلِقةً بأربعةِ خطوط في يده اليمنى من الكوع حتى تنتهي إلى الكتف، تخثَّرَ الدمُ عليها وغَدا أسودَ داكناً عند الكوع ويسيل حتى يخفّ لونه على الساعد لينتهي قبل الرسغ. رغم شكلها الممزّق تبدو له ملتئمة وعلى نحوٍ أفضلَ منها في الصباح.

يرمي الضمادة، وينحني مرتكزاً على ركبتيه لينظر إلى وجهه على صفحة الماء، حيث تؤطّر زرقة السماء المشهد خلفه، وتبتهج شمس العصر عن شِماله.. يجزع من منظره:

«أوه.. يا ربَّاه».

تسوءه بقايا الدم التي تمسح على نحره ووجهه وتصير سواداً يتكاثف عند أنفه وصدغَيه، كأنه لم يغتسل مذْ ولدتْهُ أمُّه.. يميل ببصره إلى جدائِله.. منكوثَةً مغبرَّةً.. يرتفع بعينَيهِ إلى غُرَّتِهِ إذ لفت انتباهه سائل غريب لونُه أصفر متيبِّس على شعره.. يفركه، فيتفتت بعضه بأصبعيه.. يتفحَّص لحيتَه الخفيفةَ، اغبرّتْ هي الأُخرى، وعلِق بها هشيمُ نباتاتٍ دقيقةٍ، يمسحُها بيده، ويتابعُ تفقُّدَ نفسِهِ، تذهله غلالة التعبِ بعينيه، والعينان، كما يعرف، تخبران عن حال الروح.. يجدهما مرهقتَين.. ضيّقتَي الجفنَين.. غائرتَين إلى الداخل، وقد تجمَّعتِ الأتربةُ عند المحْجرَين مكوِّنةً كتلةً صغيرة، يُزيلها بإصبَعَيه، ويُعيد النظر، فتبدو له روحه منهكة.

يتمتم:

«ستحين الراحة بعد قليل».

ومن أنفِه يلحظُ تجمُّعَ الرملِ مختلِطاً بمُخاطٍ تيبَّس حولَ مِنخَرَيهِ.

يتنهد، ويأخذ نظرةً شاملةً على نفسه مُديراً عينيه بتمهل. . يجد أن وجهه أصبح مكدوداً على نحوٍ لم يخبَرْهُ على وجهٍ من قبل. . شاخت ملامحه. . شاخت حتى صار يبدو لنفسه أنه أكبر من ثلاثين سنةً بكثير، يتمتم مستغرباً:

«ثلاثة أيام فعلت كل هذا!».

يغسل يديه. . ثم يفرك وجهه بالطين الناعم الذي يترسّب في الطبقة الأولى من تراب بِرَكِ الأمطار، وبعد ذلك يغسله بالماء. . ينزل الدم مع غَسوله ملوثاً البركة. . لا يكترث له، يُعيد الدم مع الماء الذي يغرِفه في يده، ويغسل وجهَه به مرة ثانية، وثالثة، ويستنشقُه منظِّفاً أنفه، ثم ينبش منخَريه، حتى يشعر بأنه تنظّفَ. . يستنشق أرواح نباتات الخُزامى والنفل التي فردت عبقها في الهواء، تنفك نفسه عن ضيقها قليلاً، يحسّ أنه يغسل بها القذى الذي علق بصدره من الداخل؛ يقوم مغيراً مكانه الذي تلوّث إلى آخَرَ لم يطلْه الدمُ، وحيث يجد نقاء الماء كأنه هواء لم تكنّه أنفاس؛ يجلس يعبُّ بيديه عبّاً مُصدِراً فحيحاً بعد كل شَربة. . يجري الماءُ الباردُ والنقيُّ في شقوق روحه التي فطرها الجدب. . يرفع رأسَه للأعلى ويتنهَّدُ:

«يا رباه».

ينكمش من هبوب الهواء البارد على ظهره.

الجزءُ الصعبُ من رحلته انتهى، في القرية سيعرف إلى أين سيذهب بعدما يأكلُ وينام. يجب أن يأكلَ وينامَ أولاً حتى يصفو ذهنه من ظلال الأهوال التي مرّ بها في الأيام الثلاثة الفائتة ليكون عزمُه أقربَ إلى الرشد.

«آه» يتأوّه، ويتقلّص وجهُه من تلوّي أفعى الغثيان في بلعومه عند ذكر الأكل.. يبتعد عن البركة.. يضع أصابع يده في حلْقِهِ للمرة الثانية هذا اليوم ليتقيّأ اللحمَ النّيِّءَ الذي يتآكل في جوفه.. يُقعي ويتقيأ، يخرج الماء الذي شربه للتو، وتخرج معه مضغتان صغيرتان من لحمٍ أسودَ، مع خروجهما يرجع الطعم السكري الحامض والمُر إلى لسانه، وتتفشى رائحةُ وبرِ بعيرٍ مبلولٍ في أنفاسِه.

يرفع رأسه ناظراً إلى السماء الفسيحة، ليُبعِد الضيق الذي عاود صدره مع رؤيته قطع اللحم النيئ الصغيرة، يحدِّث نفسَه ليبعث فيها الرضا:

«انتهى العذاب، سيذهب هذا الطَعْمُ غداً أو بعد غدٍ، كأنّني لم آكلْهُ أصلاً، انتهى.. انتهى».

يجلس يُصغي إلى الهدوء، بينما عيناه تغزلان في المكان، يتملَّكُه شعورٌ بالصفاءِ؛ الصفاءِ التّامِّ، يترك نفسه تستغرقُ فيه قليلاً، ثم تأخذُه فكرةُ تفقُّدِ ثوبِهِ ذي الكُمِّ الأيمنِ المنزوع.. يجدُ بقايا الدم تُخَضِّبُ الصدرَ والياقةَ، وتنزلُ بخطّين إلى أسفله، والطينُ والأوساخُ تبقِّعُهُ، حتى لَيصدقُ القولُ إنّه ثوبُ قتيلٍ خرَج من قبرٍ قذِرٍ.

يرى أنه لا بُدّ من أن يغسِله قبل أنْ يدخلَ القريةَ وإلا سيرتابَ أهلُها منه.. يتشمَّمُ رائحةَ جسدِه، بعدما نزع ثوبه.. لا يجدُ له أيَّ رائحةٍ، لكن لعلّه اعتاد عليها حتّى لم يعُدْ يميّزُها، ويقرِّر أنّه يجبُ أن يستحمَّ أيضاً.

يغمس ثوبه بالماء حتى يتمكن منه البلل، يُخرجه ويقبض

قبضة طين كبيرة.. يتنحى عن البركة ويجلس يدعكه بالطين، يركِّز حركة يديه على صدر الثوب، وسرعان ما يستلب الضعف صلبه وتأخذ يداه ترتجفان؛ ربما لأنه لم يطعم شيئاً منذ شروق الشمس غير قطعة اللحم النيئة التي ندم عليها، وربما لأنه أجهد نفسه في التفكير بالمهالك التي نجا منها حتى ارتخت نفسه، سرعان ما يقرر أن ثوبه نظف، يعصره بفتور، ويعود إلى حافّة البركة ينضح عليه الماء إلى أن يزيل عنه الطين، يعصره ثانية بوهن، ويمدّده على الأرض.

يجيء دور جسده الآن.. يتعرى نازعاً عنه سروالاً لا يقلّ قذارة عن الثوب، ويرميه غير راغب في ارتدائه أبداً.. يسير ببطء إلى منتصف البركة، تمسح جلده أذيال الهواء البارد، يجلس مرتعِشاً من برودة الماء، مع كلّ جزء من جسده ينغمس في البرودة يرتعش أكثر.. يقرفص في الماء وهو يشهق.. يغمره الماء إلى سُرّته.. يرتعد.. يحسّ بأظافر البرد تخدش جلده.. تهتزّ أطرافه.. يقفش الطين تحت الماء ويفرك به جلده بحركة سريعة.. رقبتَه.. صدرَه.. بطنَه.. شيئه.. ما بين خصيتيه.. فخذيه.. ساقيه النحيلتين.

يُعيد الكَرَّة.

ينتهي مُريقاً على رأسه الماء ملْءَ كفَّيه فينزل عنه الطين مع الأوساخ كهالة سوداء تتّسِع من حوله.

يخرج بعُجالة مقاسياً سياط الهواء البارد، ينكمش على نفسه متغطياً بالفروة، ينتظر حتى يجفَّ ثوبه ويدخل القرية.

يسهم طرفه في الزوّادة، يقلّب بها أفكاره، بدأ كل شيء معها، مذ رآها والغرائب تتجاذب عقله في كمائن الأقدار وشطحات المصير. أحداثٌ لا تُصدَّق، تلك التي جرت له في الأيام الثلاثة الماضية، ولا الجنُّ يستطيعها، يفكر: لو أن الزوّادة تحدّثت بما جرى لما كانت غرابة زوادة تتحدَّث بأكثر غرابة ممّا ستتحدث به.

الفصل الأول

«خذ هذه الزوادة وانقلع».

كان النهار قد بدأ ينحسر لليلٍ مَهيبٍ عندما أمرَتْه زوجةُ خاله سلطان بن باتل، بصوت يفحُّ من الغيظ.

كانت على غير عادتها، كاشفةً وجهها الذي كانت تغطيه عنه خلف لثامها الأسود منذ بلغ، قبل ستة عشر حولاً، مُظهرةً خدَّين شدّت خيامُ الأحزان أطنابها عبر تجاعيدهما، وعينين كامدتين كبئرين ماؤهما آسن، تنضحان بؤسهما على وجهه.

الأكثر من ذلك أنها كانت ناكثة ضفائرها الشيباء بشكلٍ فجّ، تاركة شعر ناصيتها معكرشاً ومنسدلاً على جانب وجهها الأيمن.

لم يستغرب ذيبان هيئتها هذه، فأيُّ أمٍّ تستطيع التماسك بعد مقتل اثنين من أبنائها، وهما في لمعان الشباب، في غضون سبعة أيام؛ وأيُّ أمٍّ تستطيع احتمال الاختناق الذي يسببه مكث السبب الذي جلب لهما الموت في بيتها؟

رمت الزوّادة على الأرض ومضت تهدِّده:

«وإلا أقسم برأس عيالي.. أو»، صمتت تكابد دموعها، ثم ابتلعت ريقها وأكملت تكز على أسنانها:

«.. أو ما تبقّى من عيالي إنني سأقتلك بيديّ هاتين إن لم تنقلع عنّا».

استدارت عائدة إلى شق النساء.. خطوتَين، ثم رجعت ووجهها المتشنج يكاد يتمزق من احتباس البكاء، وقالت بشيء من التوسل:

«كفى بجاه النبي.. بقي ثلاثة.. لا أريد أن أفقدهم.. اخرجْ.. اخرج الليلة.. لا أريد أن أرى وجهك بعد اليوم».

جمحت رغبتُها بالبكاء، فوضعت يدها على وجهها كأنها تكبحها، فلتت منها آهة ملتهبة، احترق لها صدر ذيبان، فوقف مشدوهاً يمسح على عمود الخيمة الذي يرفع السقف عند شق الرجال، وهو يتطلع إلى رعشات البكاء تعتري حنكها.

خُيِّل إليه أنها شكل من الأشكال التي يُظهِر بها الموت صورته.

شهقت، بعد أن تمالكت نفسها، وأكملت خطاها عائدة، وقبل أن تغيب خلف الرواق الفاصل، أقبلت إليه بوجهها مرة أخرى، لم يكن وجهُها المحزون قبل لحظتين، ولا المتوسل قبل لحظة، ارتاع ذيبان من تصلُّبِ اعتلاه وطمس ملامحه، ورآه يشي بعدد عقارب المَقت التي تلدغ جوفها لدى رؤيته، أمسكت حنجرتَها بيدها، وقالت بصوت نار تتأجج، بينما عيناها مفتوحتان على وسعهما:

«لن تبيت الليلة في بيتي، يا ملعون الصلائب، لو على موتي أو موتك».

ثم بصقت على الأرض واختفت وراء الرُّواق.

مسح ذيبان على حنجرته، أحسّ بيدها تخنقه.

* * *

عندما مسح الشفقُ السماءَ بلونه الأرجواني وهو آخذٌ بالخفوت تدريجياً إلى التلاشي، وقف ذيبان ملتبساً، يمسِّد أحد أطناب الخيمة، ينظر إلى آخِرِ ما بقي من قوس صحن الشمس يغطّ وراء الصحراء، مُخلياً المكان لليلٍ مَهيبٍ، ومفسحاً الزمان ليوم مجهول يأتي.

«إلى أين أذهب».

خيمة خاله سلطان بن باتل مضروبة على مرتفَع في آخر المضارب من جهة الشمال، مروبعة(*)، مساحة أول عمودين من جهة اليسار للمجلس، ثم يرتفع رواق إلى منتصف العمود يفصل المجلس عن مساحة عمود لنوم أبناء خاله - ونومه بعد أن أجاره خاله - وبعد ذلك ينغلق رواق ثقيل إلى السقف بمساحة العمود الرابع ليستر شقّ النساء تماماً، والذي يخرج من زاويته الأخرى ذرى صغير لموقد الطبخ.

تنفتح على جهة الغرب وتمنحه رؤية المضارب بشكل كامل. كانت الخيام تتناثر أمامه، ثلاثة وخمسون بيت شَعر، هنا وهناك، كمجاهيم(**) باركة، يعدّها كل صباح ليزيح عن نفسه صخرة الملل التي أثقلت مرور الوقت منذ احتباسه هنا. تأمّل المنظر

(*) ذات أربع أعمدة.

(**) الإبل سوداء اللون.

مجدداً كما يفعل طيلة عشرين يوماً عند الغروب، حركة الناس رتيبة في الخارج كعادتها عند هذا الوقت، أطفال يعْدُون بين الخيام يتلاحقون بشيء ما يضربون به بعضهم، رعاة الأغنام يعودون من المراعي بقطعانهم التي تثير الغبار بأقدامها، وتثغو قطعان الماعز خلف صبية يسوقونها إلى المراح(*)، نساء على رؤوسهن رزم الحطب يتمايلن من جهة الشعيب، رغاء إبل متقطع يغرغر في أكثر من اتجاه، ومن هناك، من أقصى شماله، تصطبغ مياه الغدير بلون الشفق الأحمر حتى تغدو كبركة دم متوهِّج؛ رأى الفتيات يعُدن منه وعلى جُنوبهن قِرَب مَلَأَنها بمياهه العذبة. أملى الغدير بكامل نظره، كما يفعل منذ قَتَل «متعب الغصاب»، يتأمل الوهج الأحمر المتلألئ، يتذكر أياماً مضت فيه، أياماً جميلة ترقرق صوته وهو يشدو فيه مع عذوبة مياهه، طالما أطرب الفتيات بعزفه على ربابته هناك، وتمايلت رقابهن مع امتزاج أنين وترها وآهات الشوق في قصائده، طالما أخبرنه بأنّ صوته يوقظ في صدورهن رغبة الحبِّ، أي حبٍّ، لأيِّ شيءٍ.

تذكر الأوقات التي كان ينتظر فيها موسم الأمطار بصبر يقطر ولَهاً، لتبعث الأمطار الحياة في الغدران بعدما قتلتها سموم الصيف، فعندئذٍ تنهمر الصبايا على نفسه التي عادة ما يكون أتلف طولُ الانتظار اخضرارها، يستمتع بمحادثتهن، ورؤية جمالهن، والتلذُّذ بالاستماع إلى ضحكاتهن الغنجاء التي يرى أنها السرُّ الذي يجعل من الأنثى أنثى.

(*) المكان الذي تنام فيه القطعان.

صعدت اللوعة الحامضة إلى حنجرته مجدداً، أبعد عينيه عن الغدير، شعر بأنّ منظره أصبح يؤذيه، يضغط رأسه بذكريات جميلة ولَّت بمسّرات نفسه بعيداً ولن تعود، تُبقي سكاكين الحسرة تشحذ المآسي على ضلوعه. بدا له الغدير كجزء من الجنّة التي قصَّت العجائز عليه في صغره أخبارها وعجائبها، جنّة لن يراها مرة أخرى في حياته..

هبط ببصره مع القاع المتدرج قبالته، والذي يمتد منفرجاً إلى أن يصل عند مناخ(*) خاله سلطان، حيث بركت بعض إبله الوُضَّح(**) التي يحب منظر لونها الأبيض.

حدَّث نفسه: «لعل خالي نادم الآن على أنه أجارني، قُتل ابناه سعد وسعدون بسببي، لا شك أنه يتمنى أن أرحل، ولو لم أرَ ذلك منه، أنا نفسي لا أُطيقني، فكيف هو؟».

دلك حاجبيه الرفيعَين، ثم نزل بيده ماسحاً على وجهه الطويل والنحيل، جارّاً نفساً عميقاً، تنهّده:

«أين أذهب الآن؟!».

حاول التركيز على هذا السؤال الذي أخذ يراوغ عقله المُجْهَد، حاول دون فائدة، كان عاجزاً عن جمع ذهنه وتوجيهه إلى أمرٍ واحد، أمر يجد به خَلاصه من الموت الذي تضيق عقدةُ حبله مع كلّ يوم يمر، وتخنقه أكثر.

(*) المكان الذي تبات فيه الإبل.

(**) الإبل بيضاء اللون.

منذ قَتَل وذهنُه لم يعد كما كان صافياً، أصبح جافلاً يفزُّ من أيّ وهمٍ يهيج بباله، يركض بعقله وراء أفكاره طيلةَ الوقت بكيفية الاحتراز من نار غارات «آل غصّاب» المباغتة، والتي يقدح شرارها «حميدان الغصاب» - أخو القتيل - الذي أقسم أمام قومه إنّه لن يترك الثأر إلى أن تلد الناقة كلباً أجرب أو يحزَّ رأس ذيبان بخنجره.

«إلى أين؟».

أوصدتْ حيرةٌ مدلهِمَّةٌ الأفقَ في وجهه، كما لو أن أطراف الأرض حُشِرت في عينيه، وانثالت في مُخِّه كثبان رملية غرزت بتفكيره.

استند بظهره إلى عمود الخيمة، وترك جسمه يسيل حتى جلس على القاع، مرر عينيه على المجلس، مَدَّات السدو الحمراء الطويلة، تحفُّه من ثلاث جهات، تتباعد عليها شدادات مكسوَّة بفرو نعاج أبيض وأدهم، تستولي عليه رائحة دخان حطبِ نبات الرمث ورائحة قهوة. عن يمينه استدارت حجارة الموقد وقد رفعت الدلة في المنتصف رأسَها بزهوّ، وبقربها استقر صندوق المعاميل(*) الخشبي، الأثير لدى خاله، فوقه كان النجر(**) المزعج مصفوفاً إلى جانب المحماس، لم يتغيّر هذا المنظر طيلة حياته، لكنه أصبح يراه منفِّراً.

(*) مستحضرات القهوة.

(**) أداة يدق بها القهوة.

«تريدني هذه العجوز أن أموت» حدَّثَ نفسه بيأس وهو يرمق شق النساء بعين ضيقة، وأضاف متسائلاً: «أَطَلَب خالي منها أن تطردني؟».

فَكَّرَ، وهو يرسم على التراب خطوطاً متعرجة. . «لم يبقَ لي أحد إذن».

مات أبوه وهو في خامسته، ليس له أخوة، لا يعرف قوماً غيرَ أخواله، ولا مكان غير فيافي نجد، حتى قبيلته التي لم يرَ أحداً من أبنائها قط، لم يكن ليذهب إليهم وقد طردوا أباه قبل أن يولد، كما أخبرته أمه أن أبناء عمِّه الشيخ لما رأوا أنه سينتزع منهم المشْيَخة كادوا له وطردوه؛ كان ذيبان قد فكر في العودة إليهم، منذ أول غارة شنها حميدان قبل أسبوعين، وقُتل فيها خمسة رجال من أخواله، لكنه كان تفكيراً على سبيل دفع الإحساس بضآلته وعجزه عن أي فعلٍ أمام ما يهدِّد رقبته بالقطع، لم يلبث لحظة حينها حتى بدت له العودة إليهم مخاطرةً أخرى ووقوعاً في غضاضة الأهل الكارهين.

تولّى برأسه إلى خارجِ الخيمة، حيث كانت «إلى أين أذهب» تحثو السماء في وجهه.

ومَن سيكترث له بعد أن ماتت أمه، ليس لديه إخوة يُسْنِد إليهم ضعفَه، ولا أبناء عم يذودون عن دمهم الذي يجري في عروقِه، لا مالَ عنده يليِّن به الطباع نحوه، ولا قوةَ في هُزال جسمه الذي لم يُسعفه طيلة حياته بردِّ حقِّه إذا استلب، كما لو أنه

ولد ليكون ضعيفاً وعليه أن يحني رقبته لأيّ حبل يريد جرّها.

أغمض عينيه متألِّماً من حقيقة أنّ حياته لم تعد تهمُّ أحداً غيره. رأى أنه وحيد على نحوٍ اختفى معه كلّ الأحياء حوله، وأَنْ يكون وحيداً ومِن حوله الكثيرون فتلك ليست وحدةً فقط، شَعَرَ بأنها شيء أقسى من الموت الذي يُرعبه.

ابتلع ريقه دافعاً بكاءً فار إلى جوفه.

مَن سيهتم لحياة رجل عاش دخيلاً منذ ما قبل ولادته، ذليلاً.. جالياً.. ضعيفاً آواه الرجال من خوف؟.. ولماذا تؤلمه هذه الحقيقةُ التي دأب على سماعها من الصبية عندما كانوا يعيّرونه بها في صغره؟

«لولانا لقُتِل أبوك ولم تولد» يمنُّ عليه صبيٌّ.

«لا ترفع صوتك على مَن حَمى أباك من أهله» يزعق به آخر بعد انتهاء لعبةٍ اعترض ذيبان على غشٍّ وقع بها.

«لا تأتمنوه، أبوه قتل أبناء عمه ليأخذ المشيخة منهم، ولمّا تمكن منه أحدُهم هرب إلينا وتركها» يسمع أحدَهم يصرخ بمجموعة صبية.

كان يهْرَع إلى أمه، في البدايات، ويسألها عن صدق الكلام الذي يسمعه، فتزجره كعادتها:

«لو كانوا يهابونك لما قالوا هذا الكلام».

إلا مرة واحدة، جاءها يبكي بحرقة فأمسكته من كتفيه وهزته:

«قل لهم عندما كان أبي حياً كانت أمهاتكم يحتمين في بيته إذا غزانا القوم.. قل لهم اسألوا آباءكم مَن كان يردّ إبلكم إذا كسبها الغزاة.. يا جنيني، أبوك هياب كان رجلاً يسدّ عين الشمس بسيفه، لكنّ أبناء عمه كادوا له خوفاً من أن يشيخ على قومهم، لهذا تركهم وجاء هنا طالباً السكنى وليس المَنَعة».

صفعه صوت نشيج امرأة خاله وهي تبكي في شقّ النساء. تذكّر صوتها قبل قليل: «سأقتلك».

اختلج فؤاده بضيقٍ غريب جعل يضغطه إلى الداخل، مستشعراً خطر الخروج الذي أصبح قدَراً لا بد من ترك المصير لمجاهيله.

يعي أن في الخروج مخاطرَ جمَّةً تُحْدِق في سبله، فقد يكون أبناء الغصاب كامنين له في الخارج يتحيّنون رقبته؛ ولو لم يقع في فخاخهم.. فمَن يخرج في موسم الذرعان!(*) أواخر الربيع، الوقت الذي تستعر فيه الضواري، وتخرج الهوام مكتنزة بالسموم من جحورها، وفي أول ليالي الشهر أيضاً، الليالي التي يكون نور القمر فيها أعشى! ويفضّل الجن بها كسرَ عظام الإنس واللهو في مفاصلهم، هذا غير التغيّر المفاجئ الذي قد يطرأ على مزاج الجو في موسم الذرعان، كما حدث يوم أمس، حيث كان بارداً وقت

(*) تسمية بدوية لأواخر الربيع في نجد، يصادف أواخر شهر مارس وأوائل شهر أبريل.

الفجر، وفي الصباح التهبت الشمس زافرةً الهجير، وعندما جاء العصر ثار الهواء، كما لو أنه سعال من صدر عجوز، حاملاً غباراً كثيفاً، ثم هطلت أمطار غزيرة، وفي بداية الليل عاد بارداً.

«الآن برْد» فرَكَ كفّيه ببعضهما.

لحظات ويكتمل ظلام الليل، وتبدأ عوالِمُه بالظهور.

يعرف أنّ في ليل الفيافي عالماً يختلف عن عالم النهار فيها، كائناته تختلف، سُبُل الحياة فيه لا تشبه سبل الحياة في النهار، ما يخرج في الليل يندس في النهار، وما يظهر في النهار يختبئ في الليل، وقت تغدو فيه الصحراء مَكيدة، تتفشى فوق ظهرها الأحابيل، حتى شيطان الشِّعر الذي يطرِّز المعاني في خَلَده على قماش الكلمات لا يأتيه في وضَح النهار إلا نادراً، إذ غالباً ما يكمن له في الليل، عندما تتهيأ له لذة النوم، فيحُول بينه وبين الوسادة مهدهِداً رأسه يميناً وشمالاً إلى أن ينتهي من إلهامه قصيدةً تستعرض معانيها جوهرَ الجمال بصُورِه المختلفة، ثم يُسْلِمُهُ لنوم الصبح المؤذي للبدن وللسمعة.

لم يكن لشيطان الشعر حضور في الأهوال التي عاشها في الأيام العشرين الفائتة ليلهمه قصيدة مدح يخفِّفُ بها من شهقة الفَقْد التي لوّعت صدور أخواله، كأن يمتدح حمايتَهم للدخيل، وإيواءَهم للخائف بلا مقابل، وقوّةَ تجلُّدهم أمام العدو. حاول طيلة هذه الفترة أن يستحلب قريحته التي لا تعرف غير التغزّل

وتمجيد الوله وإيقاد نيران الشوق، فلم يقدر. عزا عجزَه إلى أنّ ذهنه، على مدى الأيام العشرين التي مضت، محبوس في هواجسه التي لا تني عن إزعاجه بأنّ الأمر سينتهي بمقتله، مستجيباً لمخاوفه التي تبثّ في مخيلته تمثيلاً لما يمكن أن تكون عليه نهايته: مخنوقاً بأيديهم.. تنهال خناجر أبناء الغصاب على صدره.. تحزُّ رأسه كما أقسم حميدان أن يفعل.

مسح الخطوط المتعرجة التي رسمهما على التراب، وقام يلتقط الزوّادة من الأرض.

علم أنه بهذا قد استحبّ الهرب على المكث.

وانسحب مغتماً عند موقد النار.

ليست المرة الأولى التي يحنُّ إلى رؤية أمِّه منذ وفاتها قبل أحد عشر حولاً، لكن حنينه الآن أشد طلباً في استحضار رائحتها وصوتها وصورتها. ضعفه وأسفه على نفسه الآن أكثر حرجاً من كلّ المرات التي حنَّ فيها إلى صدرٍ يريد أن يطرح نفسه عليه ويشعر بأمان.

«الأمان.. ومن أين يمكن للأمان أن يأتي».

الليالي العشرون السابقة كانت مكفهرَّة من حياته، وخالية من الأمان، تخللتها غارات ومناوشات قُتل فيها من كلا الطرفين رجالٌ أقسم الجميع على شجاعتهم وإقدامهم، بينما هو لا ينفكُّ ينطوي تحت ذرَى الخيمة عند كل صيحة، لأنه يريد أن يشعر بالأمان، الأمان الذي فقده منذ قَتل متعب وفقد العالم معه سحرَه

وجمالَه، حيث تبين له أن الأمان هو السبيل الوحيد الذي يظهر العالم فيه مباهجه وتألقه في روعة كل ما تقع العين عليه، ومن دونه يكون كل شيء سواداً يكسو المزيد من السواد، كما يرى الأشياء الآن.

عادت كلمات زوجة خاله إلى روعه تزعق: «.. وانقلع».

تفحص الزوّادة.. رُقعَتُها من السدو السميك، حمراء نُقِشَت عليها بالخيوط السوداء أشكال رباعية الأضلاع، كبيرة إلى حدّ ما، شدّ على العلّاقة.. ملتحمة بقوة.. وجد الجيب على جنبها.. فتحه.. عثر بداخلها على قِربة لا بأس بها من جلد جَدْيٍ.. أخرجها.. كان وراءها تمر وأقط(*)، قدَّر أنها تكفيه ليومين إذا ما اقتصد، وقد تكفيه لأربعة أيام إذا ما اعتمد على الصيد.

سيكون الصيد وفيراً في هذا الوقت من الحول، يعرف حِيَلاً كثيرة في الصيد، هناك الكثير من الأرانب المكتنزة بالشحم، والجرابيع السمينة، وربما يصادف غزلاناً.

«ولكن .. إلى أين؟».

ضرب السؤال رأسه ليوقظه من تفكيره الهارب مع الصيد.

سرت رعدة في أطرافه ارتجفت معها ضلوعه، لا يعرف إنْ

(*) لبن ماعز أو غنم مجفف.

كانت من برودة الطقس أم هي عائدة إلى الخوف الذي بداخله من القادم، أم يا ترى لأنه أول مرة يكون جاداً بتفكيره في شيء ما.

لأول مرة يحدُث في حياته أن يفكر بالغد، كاسراً فكرته التي طالما سيّر عليها تفاصيل يومه ويردّدها أمام الكثيرين بصوتٍ واثق:

«الماضي ذهب ولن يعود، واستحضاره يولّد الحسرة، والغد قد يأتي وقد لا يأتي، والتفكير فيه يخلق المتاعب، أمّا ما نحن فيه الآن فهو الأمر الذي يستحق التفكير من أجله». كان يُنهيها عادة بابتسامة تُظهر اصفرار أسنانه.

فتحت امرأةُ خاله للغد في ذهنه ألف باب من الأكدار، وتكالب الماضي عليه فجأة كما لو كان خَيشة قمح انشقَّت بغتة في ذاكرته.

لا يعرف العيش إلّا هنا، نَجْد وأخواله جزء منه، كعقله، كَيَدِه، كقلبه، كيف سيعيش دون جزء اعتاد على استخدامه في كلّ شأن من شؤون حياته، آه، حياته التي تفكّكت فجأة، تغيرت، ولا يريد لها أن تتغير، يريدها كما كانت قبل مقتل متعب، هادئة، يعزف للفتيات فيها على الربابة، يطوي بصوته القوافي ويمدّها أمامهن.

حرث الموقد، لما شعر بأنه لم يعُد يسيطر على الرعدة، فتوهّجت بضع جمرات. جمع عيداناً تبقت من حطب الرمث كانت مبعثرة على الجوانب، وضعها فوق بعضها على الجمرات

المتثائبة، فَرَدَ طرفي شماغه مباعداً بينهما ثم لفّهما حول رأسه باتجاه معاكس وربط نهاية طرفيه عند قفاه، قرَّبَ وجهه من الجمرات وجعل ينفخ عليها.

«لماذا يحدث معي كلّ هذا!!» سأل نفسه.

تطاير الرماد حوله، وراحت الجمرات تتوهج باضطراد مع شدة اندفاع أنفاسه.

«ماذا فعلت يا ربي!!».

لم يؤذِ أحداً، ولم يتسبب في أية مشكلة، طيلة حياته كان مسالماً لا يخشى أحدٌ جانبَه، يحبّ الحياة، هل في حبّ الحياة ضرر على أحد؟ ويساعد، أجل، كان يساعد بالذي يقدر عليه، إذا رأى أحداً يبني خيمةً بنى معه، يمدّ يد العون لمن يريد العون، إذا شاهد مَن يحمل شيئاً ثقيلاً خفف عنه، يستجيب لنداء مَن ينادي. في الأفراح يساعد بإعداد الخراف في القدور الكبيرة، يساعد في تقديمها على الصحون.. يساعد، ويعين، ويشدّ أزر.. «فلماذا هكذا أُكَافَأ وأنا أخـ...» أطبق فمه بعدما انتبه أنه رفع صوته.

عاد يملأ صدره المرة تلو الأخرى ويعصره مُخْرِجاً الهواء بقوة، إلى أن ارتفع الرماد وكلّل المكان بهالة بيضاء أرجعته إلى ذكرى قديمة عندما كان في السابعة عشرة من عمره؛ حين كان ماراً خلف خيمة من الخيام فسمع مشادّة بين نساء استطاع تمييز صوت أمه من بينهن يضطرم بنبرة حامية تقول:

«إنه ابن مَن كنتِ تتركين زوجَك، إذا أغَار علينا القوم، وتلجئين إليه».

لم يستوعب وقتها ما الخطب، اقترب من الرواق ليستبين الأمر، فسمع صوت عجوز يثغو مستهزئاً:

«النار لا تورِث إلا الرماد».

فأرعد صوت أمه صاخباً:

«الرماد يُعمي العين».

خيطٌ من الدخان رقص من بين العيدان. دمعت عيناه من جرَّاء مسِّهما بالرماد، قال في نفسه بحزن وهو يمسح عينيه بكُمّه:

«الرماد يُعمي العين».

نشق أنفه، وارتفعت ذاكرته مع الدخان يستذكر ما جرى بعد ذلك عندما آب إلى الخيمة قبل الغروب بقليل، ووجد أمَّه مستندة إلى عمود سقف شق النساء، عاصبة رأسها بشيلتها السوداء، وقد تقاربت ملامحها بنكد. لم يسألها عن شيء لأنه يعرف أن الباب الذي سيفتحه ستزمجر العاصفة معه. تشاغل بشدّ وتر ربابته وهو يسير أمامها، فبادرته بصوت متعَبٍ:

«ذيبان يا ولد هياب».

حاول أن يتحاشى الرد متظاهراً بأنه لم يسمعها. صرخت:

«ذيبان».

استدار عند زاوية الرواق وقال يريد التملص:

«نعم نعم، انتظري، سأعود». صرخت:

«أين ستذهب.. إلى الغدير.. عند الفتيات تعزف لهن على

الربابة.. أو عند الفتية ليبصقوا عليك وتخسأ.. أين ستذهب أخبرني؟!».

أطبق عليه صدره، فسألها صارخاً:

«ماذا تريدين مني؟».

خرج صوتها حامياً ومكتوماً:

«أريدك ذئباً تملأ العين مثل أبيك».

وقفت، وجاءته تعرج، ثم أكملت بحنان:

«اترك الرداءة التي أنت فيها يا جنيني، وارفع عمود بيت أبيك كما كان».

أمسكت كفه اليمنى وضغطتها بيدها وأضافت:

«يمينك، يا جنيني، اجعل فعل يمينك يُظهرك بين الرجال».

كان يحدق بها ويشاهد كم تبدو حزينة ويائسة، ودقات الوشم الخضراء تهتز مرتبكة تحت فمها:

«لا تسوِّدْ وجهي أمامهن، ملعونات، كنّ يتمنين أباك زوجاً، لكنه اختارني، ويردن الآن أن يَصِمْنَ رحمي بالرداءة يا جنيني».

أفلت يده منها وخرج، تبعته تهمس باكية:

«ألا تريد أن تكون رجلاً يا ولدي وترفع رأسي أمامهن؟».

التفت إليها وهو يكمل طريقَه:

«أنا رجل».

صرخت غاضبة:

«أخبرني أين هي رجولتك؟.. لا.. لستَ رجلاً، أنت جبان، خاسئ، نارك لا تشتعل، ودلّتك لا تفور، حتى إنك لا تردُّ الإهانة عن نفسك أمام الفتيان».

تركها وتولى صاعداً التل خلف خيمتهم. لحقَتْهُ بصوت عالٍ:
«اليوم تحدَّثَتِ النساءُ مرة أخرى عن جبنك».
توقّف ملتفِتاً:
«فليقلْنَ ما يشأْنَ، ماذا سيضرُّني؟». ومضى يكمل هروبه.
لحقَتْهُ:
- «سيضرُّك أنك ابن هياب فارس الرجال».
- «هياب مات، ولم تنفعْه فروسيته على الرجال».
- «يكفي أن اسمه حي ولم يمت».
- «دعي اسمه يُشعل النار ويفوّر الدلة إذن».
- «اقطع واخس يا خزي».
توقف متوجهاً لها بكامل جسده، وصرخ:
«ماذا تريدين؟ حسناً أنا لن أصبح رجلاً، اذهبي إلى أختيَّ، قد تصبحان رجلين بدلاً مني».
تناهى إليه صوتها، بعد أن انحدر وراء التل، تنوح:
«أنت كوبان، ذيبان اسم رجال، اسمك كوبان.. كوبااان».
بعدها بسنتين توفّيت، حدث ذلك في صباح أول يوم من رمضان، يذكر أنه حينها كان يعزف للفتيات عند بئر.

تردد صوتها حياً في أذنه: «كوبااان».
اللقب الذي راح يعايره به الجميع.

تمتم مترحِّماً عليها:
«الله يسكّن عظامها الجنة».

تعجَّب من أن تكون الذكرى بهذا القرب والوضوح، كأنها لم تقُل هذا قبل ثلاثة عشر حولاً.

أرجع السبب إلى أنه ربما يكون من الرماد والدخان اللذين ارتفعا وأدمعا عينيه.

تكاثف الدخان.

حدَّث نفسه:

«أنا لا أريد إلا السلامة». داوم على النفخ بالوتيرة نفسها:

«لكن السلامة لا تريدني يا ربي».

انفجرت شعلة صغيرة، أحاطها بالمزيد من الأعواد، ثم جلس القرفصاء يهفهف عليها بطرف ثوبه.

جرَّه منظر تراقص الشعلة إلى التفكير بـ«غالية»، الشعلة التي توقدت في فؤاده وأحرقته بضحكتها.

«غالية» همس، واستمر يهفهف.

فكَّرَ لو أنه لم يعرف غالية لما قتَل متعب.

«ليتني لم أرَها ذلك الصباح، ليت أحداً لم يخبرني عن جمالها».

استرجع، محدِّقاً بالشعلة، أول مرة رآها فيها قبل ستة أهلّة، كان وقتها قد سمع عن حسنها وجرأتها الكثير؛ كتلك الحادثة التي سمع الفتية يتناقلونها بأنها سمحت لفتى يُقبِّلُها على خدها لأنه امتدح بياضها، ووصف قُبْلَتها بالدنيا وما فيها، قائلةً: تعال قَبِّل الدنيا وما فيها، ولمَّا طلب قُبْلة أخرى صفعَتْه وقالت بأنها ليستْ كما يظن.

وكذلك قصة أخرى تناقلتها الألسن بأنها رفعت ذات يوم ثوبها إلى منتصف فخذها لشيخ مُسِنٍّ، وقالت لصاحباتها إنها تريد أن تُعيد له شبابه، قيل إن الشيخ أخذتْه رعشة من جمال ما رأى، وعندما انفكَّت عنه قال لمن حوله إنه يشعر بنشاط غريب.

وحدث أن وافقه الحظ ذات مصادفة والتقط خبراً عابراً بأنها سترقص غداً صبيحة أول أيام العيد، دفعه ولعُهُ برؤية الجمال إلى قطع المسافة إلى قومها، لم تكن بذاك البُعد، لكنها مسافة لا يقطعها عادة من يريد رؤية فتاة ترقص. مشى من أول انبلاج الفجر، ووصل قبل أن تصل الشمس كبد السماء، وعندما وقعت عيناه عليها، تلفح شعرها بالهواء، بين صفّين من النساء يصفّقن ويردِّدن أغنية من أغاني العيد، وتتمايل مثل شعلة هبّت عليها نسمة، أبطأ الزمن في تلك اللحظة، واختفى كل ما حوله إلّا هي ونور الشمس الساقط بحنوٍّ على خديها. أفرغ ذاكرته من كلّ الفتيات الحسان اللواتي رآهن طيلة حياته، وملأ الفراغ الحاصل من ذلك بجمالها، وشعر بأن هنالك المزيد منها لم يتمكَّن من الإحاطة به. رأى فيها كيف أنّ للجمال حدوداً لا يبلغها الخيال مهما أُقْصِيَ العقل عنه، وأنها الشيء الوحيد في الدنيا الذي يريد أن يتحدث معه، فأتاه شيطان الشعر فوراً وهي تندلع، بين صفّي النساء، وتحرق مهج الرجال:

يا بنت يا مياسة
طبي نهار العيدي
يا عودك ومقياسه

ما يسلمن الغيدي
وضلوعي المنداسه
بأقدامك لوريدي
لو بيدي أشرب كاسه
منك أهدي لك إيدي

في اليوم التالي كاد يجنّ عندما كان جالساً في ظلّ شجرة من أشجار الغدير يليِّن وتر ربابته إذ دغدغ أذنه صوتٌ كريشِ الحمام يسأله «هل أنت ذيبان» ووجد أنها غالية تقف وراءه.

تنهد:

«أنا الذي سعيت لتعاستي.. ليتني لم أرها».

شعوره بأنها السبب الذي دفعه لقتل متعب وأطاح بسقف عمود دنياه على رأسه أخذ مكان حبّه لها. على الرغم من أنه يعي أنْ ليس لها دخل بما حدث، لكنه يشعر بذلك شعوراً ليس في مقدوره مجادلته.

لمّا أصبحت النار ذاكية، أضاف إليها جذعاً من شجرة السمر قليلة الدخان، واستمر يهفهف وهو يتأمل ألسنة اللهب تلعق بعضها في الهواء.

تاق لأيام صغره، أيام الأمن الوافر والسلام الكامل والاطمئنان الذي كان يمدّ أطراف الأرض أمامه، عندما كان يتحلّق

مع مجموعة من أقرانه حول ألسنة النار، بعد مغيب الشمس، عند إحدى العجائز دون نَفَس لتقصَّ عليهم قصصاً تَغْزِلُ من خيوط الخيال عالماً سحريّاً يرتدي عقولهم الصغيرة النهمة. كان العالم آنذاك يبدو له غامضاً ومثيراً كقصص الأبطال التي ترويها العجائز، وصافياً.. لم تكدّرْه الكمائن التي تلقي بها الأقدار في طريقه. كان مولعاً بأبي زيد الهلالي وحصانه الطائر، وبسليمان الملك الذي يكلِّم الحيوانات وتُطيعه الجن، وعنتر العبد القوي وسيفه الذي لا يقتل إلّا الظالمين، وسالم الزير الذي يروّض السباع، والذويبي والجنّية التي عشقته، وغيرها الكثير من القصص.

كانت تُقَصُّ عليهم القصص وتُقالُ العِبَر في كل ليلة، حتى كبر وعرفها كلها، ثمّ انطفأ بريقها ولم تعُد تستهويه غرائبها، فكان أن جاءه شيطان الشعر ليأخذه إلى غرائب أخرى.. غرائب نظم القوافي وذرّ السحر في الكلام.. فجعل يسقي قريحته الخصبة من قصائد الشعراء، مختصاً ابن لعبون، والهزاني، والوقداني، بإعجاب جليل، فنبتت أزهارها زاهية وتضوّع عطرها وغدا مزيجاً من عطور مختلفة.

«الليل حلّ الآن، الثكلى لن تتركني حتى أرحل، سأعيش بقية عمري مطروداً». سحب شهيقاً عميقاً وزفره، ثم همس:

«لماذا عليَّ أن أكون رماداً؟».

شرد وهو ينظر إلى لهب النار المتصاعد، لماذا هو هكذا الآن؟ ما الخطأ الذي اقترفه ليُصبح على ما هو عليه؟ ليس بسبب

قتله «متعب الغصاب»، القتل نتيجة وليس سبباً لهذه الحال، بل لحياته كلها، لكلّ ما كان عليه قبل الحادثة.

«أنت كوباااان» بصق صوت أمه في سمعه.

تساءل في نفسه: «هل أنا جبان فعلاً؟».. لطالما سمعهم يصفونه بالجبن.

قلّب حياته في ذهنه على عجالة، محاولاً معرفة حقيقة المشكلة معه.. ليس جباناً، كلّ ما يشعر به عند كلّ خطر هو البحث عن السلامة بأقلّ التكاليف، في بادية لا يُعير أهلها بالاً لسلامة النفس بالقدر الذي يعيرونه لسلامة السمعة.

«لكنني لست جباناً، أنا لا أريد المشكلات، أريد السلامة فقط».

عندما يُشتم، كان غالباً يتجاهل الشتيمة، لأنّ الردّ عليها قد يكلِّفه أكثر، أمّا في حالة العراك، إذا ما استطاع الهروب هرب، أو واجه كارهاً بأساليب دفاعية وبالقدر الذي يعينه عليه هزال جسمه، وإذا هرب، فلا يهرب لأنه جَبُنَ، بل لأنه يمقت ذلك الشعور الذي يكويه من محاولة إيلام الخصم وإحداث أكبر أذى ممكن مثلما تفعل الإبل الهائجة.

ضاق صدره، متذكراً من طفولته حين كانت أمه توبِّخه، وتطرده من الخيمة إذا علمت أنه لم يضرب طفلاً ضربه، ولا تسمح له بالعودة إلى أن يأخذ حقه.

كانت تجرُّه من يده إلى أماكن لعب الأولاد وتأمرُه، ملوِّحةً بعصا غليظة، أن يضرب الطفل الذي ضربه وأمامها فوراً؛ أحياناً كان ينصاع كارهاً لما تأمره، وأحياناً كثيرة يقف مكانه ويبكي ريثما ينكسر قلبها له وتذهب هي لتضرب الطفل أمامه.

فعلُه للأذى يسبّب له الاشمئزاز من نفسه، يكرهه، يكره نفسه إذا ما آذى أحداً، حتى عندما كان يضرب الصغار، تحت تلويح عصا أمه، كان يبكي معهم عندما يبكون، ويتألم مع كلّ ضربة تصيبهم منه، وتأخذه بعدها حالة رهيبة من الخوف والتهيج، مبعثها شعوره بأنّ هناك ما يهدِّد سلامته، فقد يأتي ذلك الطفل بإخوته أو أبناء عمه ويضربونه كلهم، وقد حدث هذا مراراً.

أحس برأسه سينفجر ويتطاير مثل الرماد في الريح.

فرك جبهته، جارّاً هواءً عميقاً كما لو أنه ينفخ به انطباق صدره:

«أنا لست جباناً».

* * *

«سأهرب الليلة».

أصبحت فكرة الهرَب الآن نهائية لديه، بل ومصيرية أيضاً، وها هما عينا زوجة خاله المتوقدتان في النار تكويان إرادته إلى التطبيق. «. . سأقتلك بيديّ هاتين».

لم يكن صوتها مهدِّداً فقط، رأى أنه نابع من انفجارات متوالية في فؤادها، ولم تكن نبرتها المحمّاة قبل قليل إلّا وعداً ستُوفي به الليلة.

«لن أبيت ليلتي هذه في بيتها».

تبدّل الأمر في عينه، فلا يهمّه الآن أين سيذهب، المهم أن يذهب وحسب. القرى كثيرة، هناك قرى قريبة يمكنه منها الذهاب شمالاً إلى الحجاز، أو جنوباً إلى الإحساء، لا يهم، المهم أن يترك نجداً، وحياة نجد التي تتطلب الصلابة وقوة البأس، وستمضي حياته بشكلٍ أفضل.

راح ينتظر استحكام الظلام حول الخيام، بصبرٍ نافد، ليتسنى له الهرب دون أن يشعر به أحد.

أحسَّ بصدره يعصر معاليقه، الصحراء وبواديها تحاصره، تُراكِم له الرمل، تجمع له وعورة المسافات لتلقيها في عينه. لدغت حلقَه مرارةٌ أتت مع طعم نيته بالانتظار، هذا الفعل الكريه الذي طالما آذاه وأتلف عليه روعة المواعيد وعربد، مثل عفريت، في سهولة انثيال رمل الزمن. حينما كان يرعى الخراف، كان يتمزَّق في حقيقة الحال من انتظاره غروب الشمس وانتهاء نهار بائس جلس فيه يراقب، بانتباهٍ مجهِدٍ، القطيع خشية أن تروغ واحدة عن عينه.

في الصيف ينتظر موسم الأمطار لتترع الغدران بالماء وترعى نفسه رؤية الجمال والاستماع إليه. في الليل ينتظر شيطان الشعر، إلى أن بدَت له الحياة كلها سلسلة من الانتظارات التي من شأنها أن تفسد مشارب حياةِ المرء وتغرقه في مائها الآسن. همس ببيتين من شعره وصف بهما الانتظار:

أتحرى(*) والتحري نار تلضى
ويل من تلضاه نيران التحري
كنه إلي حافيٍ في قاع رمضا
الوقوف مضر والممشى مضري

كانت الدلة في زاوية الوجار، فتح غطاءها وأمالها ناحية ضوء الناز ليرى جوفها، رأى القهوة إلى منتصفها، صبّ فنجاناً، تذوّقه، وجده بارداً، قرّبها من النار.

أخذ يفكّر، مُديراً بصره في المجلس، وقد تناهى له نشيج صاحبة البيت، مرة أخرى، وهي تحاول كبت صوتها، كيف قَتَل؟.. كيف! وهو الذي يبتعد عن المشاجرات لمجرد أنها تسبب الأذى له ولغيره، هزّ رأسه متمتماً:

«لو لم تضحك غالية لما كان ما كان.. ليتني لم أعرفها».

طافت بذهنه إحدى ذكرياته معها، عندما قال إنّه يحبها.

كانت جالسة أمامه، فقالت مبتسمة وهي تنتف أوراق زهرة نويّر:

«أتعرف يا ذيبان.. ليس بك شيء من الزين.. قصير وحنكك أطول من قدمَيك، لكن، شِعرُك ذيبان، شِعرُك..»، صمتت تضغط على حاجبيها وتنظر إلى الأعلى كما لو كانت تبحث في عقلها عن كلمات مختبئة بينما تحرك ساق الزهرة على شفتيها: «لا أعرف، لكن، عندما أسمع شعرك كأنّ يدَك تنسلّ في

(*) أنتظر.

داخلي، مع كل كلمة تنطقها، مع كل وصف تقوله، وتمسك يداً أخرى في صدري، وبخاصةٍ إذا شدوت به، كأنه يخرج من روح معذَّبة».

ضحك:

- «أوافقك.. لست زَيناً، لكنني لست شَيناً».

- «بل أنت أزينُ شينٍ قابلتُه».

أسقطت الزهرة من يدها، وقالت:

- «هيّا أعد عليّ قصيدتك أمس، التي عن الشوق».

- «أبشري».

التقط القوس والربابة، وعزف شاعراً بالغبطة.

غالية بنت سيار، التي يدفع الرجال نصف أعمارهم لتكلِّمهم، تغازله بشكلٍ خفيّ.

وشدا:

بنت يا للي غالية وأبوك غالي
ليت من بدّل معك عمره بساعة
شوق قلبي نار من أول وتالي
والقطاعة ما وراها إلا القطاعة
المولّه في حشاه الموت صالي
دون محبوبه شرى موته وباعه
طالعيني نظرة منك تعنى لي
واطلبي مني وأنا سمعٍ وطاعة
هب ريح القلب من صوبك شمالي
والرجل لا حب حب اباندفاعه

الـغـلا رفـع بـصـدري نـجـم عـالـي
قـبـل أشـوفـك كـان مـا هـذا ارتـفـاعـه
لـيـه مـعـك أحـس مـر الـوقـت حـالـي
لـيـه صـوتـك يـطـرب أيـامـي سـمـاعـه

أمالت رأسها إلى الوراء، وقالت:

- «آه يا ذيبان، كأنك مشتاق فعلاً، هل جربت الشوق، أم تكذب مثل الشعراء؟».

- «الشعر صدق وليس كذباً».

- «جربت الشوق!».

- «نعم جرّبتُه».

- «إذن أنت هاوٍ؟».

هزّ رأسه إيجاباً.

- «مَن التي تهواها وتقول فيها كلّ هذا الكلام الجميل؟».

- «أنتِ».

اندهش حينئذٍ، ليس من نفسه لأنه اعترف لها بحبّه بهذه السهولة، بل لأنها لم تبدِ أي اندهاش.

كان رأسها مائلاً كما كان قبل أن يقول «أنتِ»، لم يطرأ على وجهها أي تعبير يدلّ على أنها تضايقت منه، حتى كأنها متأكّدة من أنه سيقول: أنت.

ارتجف فكُّه وشعر بأنه يجب عليه الآن أن يمضي قدُماً ويقول ما في صدره: «أهواك غالية، منذ سمعتُ بك، قبل أن أراك ترقصين في صباح العيد.. بل، بل أهواك قبل أن أسمع بك، هذا

ما أشعر به حقيقة، إنني أهواك قبل، قبل أن أولد، قولي ما تشائين، وافعلي ما ترينه، فهواك ليس في قلبي فقط، بل في جسدي كله، في عيني التي تريد أن تراك، في لساني الذي يشتهي دائماً نطق اسمك، في أذني التي تحب صوتك، في أحلامي، في تحركي، في كل شيء».

ضحكت بصوت عالٍ، ثم قالت وهي تنهض:

- «هل ما قلته للتو شعر؟».

- «لا ليس شعراً».

قال وهو يقف ويقترب منها خطوتين:

«هذا صدق».

ضحكت وهي تمضي إلى الفتيات عند الطرف الآخر للغدير:

«لا ليس شعراً.. هذا صدق».. أعادت ما قاله بشكل ساخر:

«إذن تعترف بأن الشعر ليس صدقاً».

«آآآه» تألّم واضعاً رأسه بين يديه:

«ملعونة الساعة التي عرفتك بها يا غالية، لا شكّ أن الأيام القادمة ستكون أمرّ من هذا اليوم العصيب».

صب فنجان قهوة، شرب، لذعته سخونتها، أبعده وراح يدوّره ليبرده، وجد طعم الهيل طاغياً على نكهة المسمار(*) فيها، تماماً كما يحبها. شرب حتى تماسك ذهنه وازداد تفكيره جدية:

(*) القرنفل.

«سأهرب.. ولا يهم إلى أين».

«السلاح».. خبت عيناه متذكراً أنه لا بد من سلاح يقيه البواغت. زفر زفرة أسف، لا يعرف كيف يستخدم السلاح، بل كان يتعمَّد الجهل باستخدامه منذ صغره خوفاً من أن يطلبه أحدهم للنِّزال، أو أن يأخذوه معهم إلى الحروب، إضافة إلى أن هزاله لا يعينه على المقارعة، حدث أنْ جرّب مبارزة ابن خاله الذي يتقن الضرب بالرمح، قبل بضع سنوات، كانت تجربة فاسدة، أظهرت مدى ضعفه وسرعة وقوع الرمح من يده.

لا يعرف منذ صغره إلّا المقلاع، كان بارعاً في اصطياد الأرانب فيه، وكانت أمه تقول له إنها تلتمس العزاء بهذه الإجادة التي قد تمكنه من رمي الرجال والذود عن حلاله ولو بقذف الحصى على الأقل.

برقت عيناه «المقلاع ينفع».

قام وأجال بصره، يميناً ويساراً عند الخيمة، على الزرقة الخافتة للمغرب، رأى خاله سلطان بن باتل مشغول، عند مَناخ إبله، وأبناءه الثلاثة بإخماد فحل اضطرم هائجاً، محاولين ربط رجليه وعرقلته عن الحركة، ومن شقّ النساء في الخيمة، كانت العجوز لا تزال تنشج وتتمتم بكلمات غير واضحة، وتضرب القدور بقوة في الأرض وهي تُعد العشاء.

بعدما تأكَّد أن لا أحد ينتبه له، قفز بخطوتين إلى رواق بيت الشَّعر الجانبي، ونكث خيوطه الغليظة المغزولة من وبر الإبل وشعر الماعز، فرزها خيطاً خيطاً كُلّاً على حدة. رغم مضي سنوات كثيرة على آخر مرة صنع فيها مقلاعاً، إلا أنه لا يزال

يعرف كيف يصنع واحداً بجودة ذلك الذي كان حميدان الغصاب يأخذه منه عنوة في صغرهما. لم يدُم الأمر طويلاً حتى جلس القرفصاء في الخارج، خلف رواق الخيمة، مادّاً رجله اليمنى، وعلى إبهامها ربط سبعة خيوط غليظة وطويلة، جواها على بعضها مثلما يحوي جدائله، رصّ الخيط على الخيط رصّاً شديداً يصعب نكثه، إلى أن أصبح لديه حبلٌ من الشَّعر بطول ساقه، وضعه جانباً، وجدل بالخطوات نفسها حبلاً آخر مثله، واستغرقه صنع الرقعة العريضة التي تحمل الحجر وقت أطول، تابع عمله بسرعة وإتقان، كأنه لم يتوقف قط عن صناعة المقاليع، ربط الحبلين بالرقعة، وعند الموقد كوى على الجمر ما زاد من طرفي الحبلين عن الآخر، وأخيراً عقد حلقة لأصبعه من نهاية أحدهما، ثم أعلن بصوت هامس:

«الآن لدي مقلاع يمكن أن أصطاد به بعيراً».

ما إن ارتسمت صورة بعير في ذهنه، حتى تخافتت إليه أصواتُ عَدْوِ خيلٍ قادمة من اتجاه مضارب قوم الغصاب.

تهيأت له خيالات الأجسام ككتل سوداء مندفعة، عدَّها خمسةً، تتقافز مع إيقاع صوت العَدْوِ، «غارة أخرى»، خمّن بسرعة، «لا بد أنها غارة سريعة.. خمسة فرسان قليل جداً عن كلّ مرة»، حبا مسرعاً إلى ذرى الخيمة، تعرقلتْ يدُه في الشداد، فقلَبَهُ مُسْقِطاً عنه فرو الخروف، واستمرّ يحبو إلى أن بسط جسده على الأرض، اختبأ تحته مستلقياً مثل كلّ مرة، وحاول جاهداً تخفيف لهاثه وضربات قلبه التي بدأت تمنعه من سماع ما يحدث.

أصاخ السمع إلى اضطراب أقدام راكضة تقطّع صيحات خاله وهو ينادي قومه، تتداخل بصيحات ملبّية من بقية الخيام حولهم يبدِّدها صوت صراخ زوجة خاله ترجو أبناءها أن يكفّوا عن تمزيق قلبها ويتركوا القتال، كما يحدث طيلة عشرين يوماً مضت، بدا له عدد الفرسان مريباً هذه المرة، هل هي غارة يستعرضون بها شجاعتهم، أم يئس قوم الغصاب من الثأر وعزفوا عنه وهذا حميدان يقاتل ومعه إخوته فقط.. أم «حيلة»؟

فكّر: حيلة من حيل الحرب يريدون بها جرّ القوم إلى كمين.

أرهقته ضربات قلبه، قوية ومسموعة، منعت تدفّق الأفكار في رأسه. فقال في نفسه: «مهما كان الأمر الذي جاء بهم، فهو شؤم على سلامتي ولا بد أنه..»، قطعت حديثه مع نفسه صيحة رجل جهورية: «السلام السلام.. عويذة الله من الشر والدم».

على مسافة نصف نهار من مضارب أخواله أراح ذيبان إنهاكه تحت سدرة تتطرف روضة خضراء زاخرة. لا يزال الشعور بالعري يتملكه. رغم الثوب الثقيل الذي يرتديه والسروال تحته إلا أنه يشعر شعوراً صريحاً بأنّ مؤخرته مكشوفة.

فتح الزوادة التي أعطته إياها امرأة ابن باتل وأخرَجَ القربة، ملأ فمه من مائها ثم أعادها وأخرج تمرة ومضغها دون نفْس، كان الأسى يدبّ في سائر أنحاء روحه، لدرجة أنه لم يجد طعم التمرة. التقم تمرتين، ومضغهما على مهل، فلم يحصل على طعم، قدّر أنّ هذا ربما يعود إلى أنفه الذي قد يكون كُسِر، وضع خنصره في منخره متألماً، أداره برفق وأخرجه فإذا بكتلة دم متخثرة صغيرة لصقت تحت أظفره، مسح عليه من الخارج، وبصق نواتَي التمر.

كان الهواء رائقاً يرقص فوق أوراق السدرة ويكركر جارياً على أغصان العوسج المتناثر أمامه، ويمسح على العشب المبتهج آتيه بروائح أعشاب الربيع التي بالكاد كان يستروح أريجها المفرِح

للمهجة، لكن روعة المكان لم تكن تبهجه بعد الذي حصل. وكانت الصحراء منفرجة خلف الروض على نحوٍ تائه وغير محدود، لم يكن في باله أن يمكث طويلاً، يريد أن يريح جسده المنهك من المسير استعداداً لخوض مجاهيل الصحراء ومخاطرها.

استرجع أحداثَ أمس في ذهنه. أحداثٌ عصيبةٌ لم يكن لينجو منها لولا..

غيّر مسار تفكيره لأن استرجاع ما حدث يُشعره بالحرَج من نفسه.

اعتراه شعور بأنّ حياته أصبحت ثقيلة ومتعبة، وستصبح مع مرور الوقت همّاً لا يمكن الخلاص منه، ولكي يعيش مع ما حصل يجب عليه أن يركل الأيام ركلاً لكي يمضي عمرُه.

حدّث نفسه:

«سأغيّر اسمي عندما أصل إلى الكويت».

فكّر شاكّاً بأن تغيير الاسم سيغيّره: «ولو لم يغيّر هذا فيَّ شيئاً لا شك أنه سيطوي سيرتي عند ما حدث ضحى أمس، سيتوقف اسمي عن التردّد، ليس لي أبناء أو إخوة يعايرونهم بعاري، أختاي تزوجتا من عشيرة بعيدة، قد يطال أبناءهما نَتَني ويعيِّرونهم بي، لكنني في النهاية سأُنسى مثل الموتى».

وقف برهة عند كلمة الموتى متذكراً ما قاله حميدان الغصاب أمس: «من الآن أنت ميت، تعيش كالميت».

وأكمل تفكيره: «لكنهم قد يجعلونني مضرب مثل، قد يقولون (فلان أجبن من ذيبان)، أو لن يسمى أحد بذيبان بعد ضحى أمس».

أخذ نفساً طويلاً متأنياً ومتقطعاً أفرغه بآهة وهو يتطلع إلى الريح تلمّ رؤوس الأعشاب بأناة وتفرقها، شرقاً وغرباً، بحركة لطيفة مداعبة.

حدّث نفسه: «لا يهم ماذا سيقولون، فلن أسمع منهم شيئاً بعد اليوم، ولا أريد أن أسمع عنهم شيئاً بعد..».

قطعت حديثَه رؤيتُه لشيء ما؛ تراءى له يثب عند إحدى أشجار العوسج، أوجس خيفةً، مثل هذا المكان غير آمن، عادة يكون مأوى للضواري، فرقع قلبه خشية أن يكون المخلوق الذي تراءى له ذئباً، أو ضبعاً، أو.. أو رجلاً يكمن له.. السباع ليست موجودة إلّا في قصص العجائز، لكن مَن يدري لعلّ سوء حظه يلاقيه بواحد. اعتدل وركّز النظرة صوب العوسجة، راقب، إلى أن وثب المخلوق وثبة صغيرة أزالت نصال الخوف من شرايينه، «أرنب» قال مُخرجاً المقلاع من جراب الزوادة، وحبا وراء السدرة منحدراً مع الأرض خلفها، ثم قام حانياً ظهره يخاتل الأرنب من خلف شجرة عوسج ثانية، وضع حجراً في رقعة المقلاع، وصعد مع الأرض بروّية حتى بانت له الأذنان الطويلتان اللتان لم تكونا متّجهتين إليه، رأى أن المسافة مناسبة، سنوات

طويلة مرّت منذ آخر مرة استخدم المقلاع في اصطياد أرنب، لكنه شعر بأنه متمكّن منه، حبس الهواء في صدره وأدار المقلاع فوق رأسه، دورتين سريعتين، وعينه مثبتة بتركيز بالغ على الرأس، ثم أفلت أحد طرفي المقلاع فأزّ الحجرُ بالهواء وارتطم برجل الأرنب.

«السلام السلام. . عويذة الله من الشر والدم».

توقف بعدها الاضطراب كما لو أنّ الصمم وَقَرَ في سمعه، وحفّ المكانَ هدوءٌ مرعِبُ، هدوء أدار رحى الخوف في صدره تطحن أعصابه. تفجرت خواطره: الصيحات في أوقات الشدة، مريحة كالهدوء في أوقات الرخاء، لأن هذا هو الوضع الذي ينبغي أن تكون عليه، أما الهدوء في أوقات الشدة، فمرعب كالصيحات في أوقات الرخاء، لأنها تخبر بأنّ شيئاً غير صحيح يحدث.

رجاهم في نفسه: «ما الذي يجري؟! هيّا أرجوكم تقاتلوا، افعلوا شيئاً، لكن لا تصمتوا هكذا».

كانت أعصابه تشتدّ وتشتد مجاهداً الرجفة التي رقصت في سائر جسده خشية أن تظهر على الذرى فوقه فينكشف مكانه. ألصق رأسه بالأرض، واضعاً خده على الرمل لتخفّ الرجفة على الأقل، أصغى إلى حوافر الخيل تقترب برويّة، اقتربت إلى أن توقفت عند مربط الخيل أمام الخيمة. لم يتمالك نفسه، أزاح الرواق عن عينه وسرق نظرة إلى الخارج، ورغم الظلام استطاع

رؤية أجسام رجال ممشوقة متأهبة، لم تسعفه النظرة لإحصاء العدد، لكنهم بدَوا له أكثر من عشرين رجلاً يقتربون من المجلس. ابتلع ريقه؛ ما الذي يحدث هنا، تنافرت في مخيلته ظنون سوداوية، هل سئم خاله من الحرب التي ليس له من ورائها إلّا الفواجع وقرّر تسليمه، أم جاؤوا لينهوا القتال ويأخذوا الدية التي تكفّل بها أخواله؟!

رفع الرواق مرة أخرى، وعلى وهج النار الخافت شاهد «مرضي الغصاب»، عمّ حميدان، ذو العين المعطوبة، يتقدّم الجَمع ومعه أخوه فيحان الغصاب، وبصحبتهما ثلاثة من قومهم لا يعرفهم، والبقية كانوا من قوم ابن باتل.

لسوء الحظ أنه انبطح تحت الذرى الذي يمتد خلف صدر المجلس، حيث اتجه ابن باتل بمرضي الغصاب وأخيه فيحان وأجلسهما.

رفع خده عن الأرض، زوى رأسه للوراء ووجّه أذنه للمجلس: «سينكشف أمري».

كان دقّ النجر سريع الإيقاع، لم يسمع معه غير همسٍ من بعض الرجال، فكّر: بعد شُرب القهوة سيبدأ الحديث.

صاح ابن باتل بأحد أبنائه: «الخروف، اذبح لنا خروفاً»، فاعترض أحدهم رافضاً العشاء، ومعلناً أنهم لن يمكثوا هنا طويلاً.

توهجت النار في الخيمة، بعد أن انهمك أحدهم في إشعالها، وأشاعت الدفء والنور. رفع ذيبان الذرى بحرص شديد، ورأى كلّ شيء بوضوح يثير الهلع، إذ كان الرجال قريبين

لدرجة أن أيّ عين تقع على مكانه سيمكنها تمييز انحناءات جسده تحت الذرى. غطى عينه.

سمع فرقعة الفناجين في يد المقهوي، وأنين خشب السمر فوق النيران، ثم بعد برهة قصيرة، تكلم أحدهم، وكان صوته صلداً بحيث لم يتمكّن ذيبان من سبر ما يقف خلفه من شعور.

«يا ابن باتل طالَ القتال، وقُتِل منّا ومنكم مَن قُتل ونحن أبناء عمومة، ولا يخفى عنك أن قوم ابن معدي استغلوا الفرصة وهم الآن يتجهَّزون ليغيروا علينا وعليكم ليكسبوا إبلنا التي كسبها آباؤنا من آبائهم، بينما نحن نمسك في حلق بعضنا، جئتك مع أخي فيحان، ومعنا ابن رداد والكويمي وراجح البلدان، وقرناس بن البديح لنهادن».

«صبّ قهوة» أمر ابن باتل المقهوي: «مرحِّباً ومُسَهِّلاً، أبناء عمومة وحلفاء، أنا معكم بما ترونه، شريطة سلامة ذيبان».

استبشر ذيبان، فها هو ظنٌّ ثقيلٌ يسقط عن صدره، خاله لن يُسلمه. رفع الذرى ورأى مرضي الغصاب يهزّ فنجان القهوة ويقول:

«نرى أن نهادن على ألّا يمس أحدٌ دخيلَكم إلى آخر القيظ، كي نتفرغ لردع ابن معدي وقومه عن حلالنا، ومن ثم أنت تعرف أن الدم ليس كالماء».

ومن الفتحة الضيقة بحث ذيبان عن وجه خاله، حتى وجده جالساً على قدميه يفتل لحيته متأملاً النار، والمجلس صامت ينظر إليه ماذا سيقول.

أنزل ذيبان الذرى وحاول أن يزحف على جنبه ليخرج من الجهة الأخرى من الخيمة، لكن ما إن تحرّك حتى شعر بخطورة أن يشعروا باهتزاز الذرى ويكشفونه، وبخاصةٍ أن الهواء اللعين صامت هو الآخر، ولا مجال لتفسير اهتزاز الذرى غير أن تحته شيئاً ما يتحرك.

وبعد أن تعذّب بفترة صمت بدت له بطول يوم كامل، سمع صوت ابن باتل:

«مشورتي عليكم أن تأخذوا الدية وتتركوا هذا المسكين وشأنه».

«المسكين لا يقتُل يا ابن باتل»، قال صوت غاضب خمّن ذيبان أنه فيحان الغصاب: «أنت تعرف أننا لا نأخذ الدية في دم المقتول»، زاد الصوت من نبرة الغضب: «إما أن نقتله وإما أن نموت دونه».

نادى ابن باتل: «قهوة.. قهوة».

ران الخيمة صمتٌ متوتر يقطعه صوت فرقعة فناجين القهوة، أزاحه ابن باتل قائلاً:

«ذيبان ابن أختي وهو ابن رجل كلّنا نعرف قدره، قُتِل اثنان من أبنائي، وسأقف دونه إلى أن يُقتَل البقية منهم، ولن أتركه لكم إلى أن تقتلوني، أما الهدنة فلا بأس بها..».

«يا ابن باتل» بَتَرَ صوت زوجة خاله الحديث، بصوتٍ عالٍ

من شق النساء: «يا مرضي الغصاب، يا رجال، ليس لكم غير حلٍّ واحد، يكفّ أذى بعضكم عن بعض ويحفظ لكلٍّ معروفه».

عرف ذيبان أنّ صوتها مصحوباً بفاجعة.

صرخ ابن باتل «اسكتي يا امرأة». «لن أسكت». استغرب ذيبان صراخها بزوجها أمام الرجال، رفع الذرى بسرعة ورآها تخرج من الشق تلفّ وجهها بلثامٍ وتتقدم بسرعة حتى وقفت بمنتصف المجلس، وقبل أن يقوم زوجها، قالت لمرضي الغصاب:

«حميدان ينازل ذيبان، ونكتفي بمن يقتل الآخر ونكفّ الشر عنّا وعنكم».

لم يتمكن من فهم ما سمعه، «أنازل حميدان.. أنا أنازل حميدان.. وحدي.. حميدان بعير لا يُطرَح.. ولكن كيف؟»، فكّر بذهنٍ مضطرب، ترك اللغط حوله وتسمّر تركيزه عند طلب المرأة الملعونة التي تريد أن تقتله بأيّ شكل من الأشكال: «ملعونة.. ملعونة.. ملعونة».

ومن بين الأقوال التي تسارعت في المجلس استطاع اللحاق ببعضها يقول: «هذا هو الرأي، وبهذا ننتهي للأبد»، وآخر: «وتنهي جيرتك على بياض وجهٍ يا ابن باتل»، وصوت مرضي الغصاب مرحِّباً: «امدد يدك وصافحني يا ابن باتل على هذا.. امدد يدك يا ابن باتل.. امددها.. ما بك؟».

سمع صوت ابن باتل متردداً: «لكن، أولاً دعوني أسمع رأي ذيبان».

«ذيبان ضعيف». . تقلَّص وجه ذيبان وهو يهمس تحت الذرى: «ضعيف يا خال وامرأتك الملعونة. .».

ما إن أنهى كلمة الملعونة حتى صاحت امرأة ابن باتل بفاجعة أخرى: «تجدونه مندسّاً تحت الذرى، خلف ظهرك يا الغصاب».

«ألعن أبوها». . همس ذيبان قبل أن يرفع أحدهم عنه الذرى.

* * *

رغم أنّ الشمس مشتعلة، متصدِّرة كبد السماء وترسل الدفء، إلّا أن البرد الذي قبض صلب ذيبان، لدى رؤية سَاحة النزال، لم يكن ليكفّ عن العبث بأطرافه ولو مسَّته الشمس بلهبها، كان برداً حياً، شعر به ذيبان، كجرابيع تتقافز فيه.

اجتمع الفريقان على الموعد، فيحان الغصاب ومعه ثلاثون فارساً، وابن باتل ومعه مثلهم، عند سهل منبسط يقع بين مضاربهما، ومن مسافة غير بعيدة، خلف كلّ فريق، احتشد نساء وصبيان من كِلا الفريقين، لمشاهدة النزال.

وكان جمعان آخران من قبيلة المشارقة والحوافظ حاضرَين بطلبٍ من ابن باتل والغصاب ليتدخَّلا إذا ما بغى أحد الفريقين على الآخر.

تهفهف الهواء منعشاً في ظلِّ الخيمة التي ضربها ابن باتل لفرسانه، لكنه باردٌ ما إن يلامس جسد ذيبان، ويرعشه.

أجلسه الفرسان في صدر الخيمة، يتعاهدونه بالدلة تلو الدلة تلو الأخرى، لدرجة أن طنين النجر، الذي لا يني يدقّ، حفر ثلماً آلمه في سمعه كما يؤلم الجلد نخس المخرز.

«كما قلتُ لك بالأمس»، قال له ابن باتل «جسمك أخفّ من جسمه، إياك أن تشتبك معه بالأيدي، كرّ وفرّ، تذكَّر هذا جيداً، كرّ وفرّ إلى أن يتعب، ولا تطعنه إلّا إذا وثقت أن قدمَيك ستقفزان بكَ بعيداً إذا ما تجنّب نصل سيفك، ولا تتوقف ذيبان، أثناء النزال الوقوف يفتح أبواباً كثيرة لموتك، الحركة، تحرّكْ لا تقف، كما علّمتك، فرصتك تعتمد على ضخامته وثقل حركته، ونحافتك وخفّة تنقلك حوله».

كان ذهن ذيبان بعيداً عن هذه التعليمات الميدانية، يفكّر بكل هذا، كيف حدث، كيف وافق.. عندما خرج لهم من تحت الذرى قبل يومين، شعر بالإحراج كما لم يشعر به من قبل، مع هذا كان يستطيع أن يقول «لا» ويُنهي الأمر، لكنها ثقُلت في لسانه.

حدَّث نفسه متظاهراً الاستماع إلى تعليمات ابن باتل: «امرأتك بنت الكلب، هي التي دفعتني، هي مَن قالت وافِق يا ابن هياب فارس الرجال، وعيونكم الملعونة كانت تهز رأسي

بالإيجاب، كلكم ضدي يا خال، كلكم ضدي يا ابن باتل، الغصاب، أنت، امرأتك، قومك، ليس في صفي أحد، جميعكم تعادونني وتريدون موتي، كل شيء ضدي، العالم لا يطيق وجودي، ولو كنت مسالماً لا أطيق رؤية الدم إلّا أنه يبغضني.. تبّاً لكم كلكم».

صاح بهم رجل أمام الخيمة: «أعطوا إشارة البدء».

قام الفرسان، كان ذيبان آخر من قام، راودته رغبة حارقة في البكاء، شعر بأنه ذبيحة تُساق إلى الموت على قدميها، خدرت ساقه اليسرى فعرَج بضع خطوات وضربها بيده حتى صحت. وقف عند عمود الخيمة ينظر إلى الجموع أمامه، راعه المنظر، الأنظار كلها تتّجه صوبه، وكل شيء واضح على نحو لم يره من قبل، تشتّت ذهنه، كأن التفاصيل تناديه، تشير له أن يراها.

«لو أنني هربتُ أمس»، حدّث نفسه وهو يدير نظرة واسعة على المكان الفسيح، «لكن الملعونة قالت لإخوتها ناموا عنده كي لا يهرب ويفضحكم»، وفكّر أنَّ كلّ ما حدث له مرسوم منذ البداية، فالأحداث حبّات خَرَزٍ مثقوبة، والقدَر هو السلك الذي جمعها بتسلسل، كأنما انفرط السلك بغتة.

«فهمت ما أعنيه؟» قاطعه ابن باتل وهو يمدّ له السيف الذي سينازل به حميدان: «ذيبان فهمت ما أعنيه؟».

«نعم، نعم، لا حركة، أتوقف فقط».

«يااا أبي» تنهّد ابن باتل لخيبة ذيبان: «لا لا، لا تقف، لا تسكن، لا تثبت.. تحركْ، هكذا»، وراح يثب داخل الخيمة يميناً وشمالاً ملوِّحاً بسيفه عالياً: «هكذا، كما ترى، ثمّ تطـ (قفز وطعن الهواء) ـعنه هكذا، هل فهمت الآن؟».

«نعم فهمت، فهمت».

خرج من الخيمة، وراح يدفع نفسه دفعاً وراءهم إلى الميدان، ثقُل السيف في يده رغم أنه أخفّ سيف وجدوه له، أخرجت الرجفة أصابعه عن طوعه، فسقط السيف منه، نظر إليه ابن باتل نظرةً هي خليط من الشفقة والغضب والتأنيب، عرف ذيبان منها أن ابن باتل لا يريد للعار أن يلتصق ببطون نسائهم، أو أن يقول العرب إن نسبهم يطفئ المراجل.

لم يستطع فهم سبب خوفهم من العار أكثر من خوفهم من الموت، مستعيداً فكرة قالها يوماً لأمه: «الحياة واسعة لماذا هذا الضنك؟ لماذا تصرون على وضع الحدود وتضييقها؟ فما العار إلّا أفعال وضعتموها لتتنافسوا أيّكم يختار الموت ولا يأتيها، ليصبح بعضكم أفضل من بعض».

حمل ابن باتل السيف من الأرض، ومدّ ذبابة النصل صوب ذيبان، رأى ذيبان في عينَي خاله المشحونتين بالإصرار أمراً صارماً

بألّا يجلب لهم العار، ثم بحركة رشيقة أدار ابن باتل السيف ومدّ المقبض إليه.

أمسكه ذيبان مرة أخرى، وقال في نفسه: «القتال أكبر عار»، ثم أكمل معهم إلى النقطة التي اتفقوا عليها، وعندها سيتوقفون ليتقدَّم وحده.

كانت الدنيا تبيضّ في عينيه، والخوف يفيض في بطنه. همس لخاله وهما يسيران:

«أكثرتُ من القهوة، أريد أن أبول».

ساطته نظرة ابن باتل وقالت له بشكل صارخ: هل تريد أن تفضحنا؟

فأكمل يجر الخُطى بينهم.

على نحو غائم، تراءى له وجه أمه في السماء على سحابة بيضاء يبتسم فخراً.

توقفوا، ومضى وحده حتى أصبح وسط مثلث وقفت على زواياه ثلاثة جموع متباعدة.

صاح ابن باتل بنبرة واثقة متحمسة:

«الميدان يا حميدان».

تلوّى الأرنب بالأرض قبل أن يجرّ رجله خلفه ويقفز متعثراً برجل واحدة، ركض إليه ذيبان وهو يشعر بالحبور. «كان يجب أن أصيب الرأس، لكن لا بأس، لم تذهب بعيداً، أحتاج إلى بعض التدريب»، حدّث نفسه وهو يقترب من مجموعة أشجار عوسج ملتفّة بشكلٍ يُعيق المضيّ بينها.

«أين اختفى؟» بحث متتبعاً الجرّة، حاشراً جسده وراءها بين أغصان العوسج المتشابكة، مراعياً تخفيف وطء قدميه فوق الأوراق والأعواد، فرآه يقفز بعرجته خلف مجموعة أخرى من الأشجار، «لم تكن إصابتي كافية» همس وهو يلتقط حجراً آخر ويلقمه المقلاع. راح يهرول باتجاهه. وقف الأرنب منكمشاً بين جذعين يرتعش أنفه من الرعب. نظر ذيبان إليه ومقلاعه يتمرجَح تحت يده، ذكّره منظر الأرنب بما كان منه ضحى أمس، فكّر: لو كان للأرانب مخالب لما كان هذا حالها، هاربة ومختبئة طيلة الوقت. ثم أدار مقلاعه فوق رأسه بقوة مجنونة وأفلته مهشماً الرأس.

***

لم يكن معه سكين ليسلخ فرو الأرنب، علّق ثوبه بالسدرة، وراح يبحث في الأرض حوله إلى أن عثر على صخرتين صلدتين بيضاوين، ضربهما ببعض حتى انفلقت إحداهما، وضع فلقة فوق أخرى على نحو مائل، ضربها حتى انقسمت قسمين صغيرين مصفّحين، أخذ أحدهما وحكّ طرفه بالآخر إلى أن أصبح حادّاً، كانت عملية منهِكة، تعرّق منها إبطاه تحت شمس العصر. سلخ الأرنب، ونظف بطنه مخرجاً أمعاءه الزرقاء الرفيعة وكرشه التي وجد فيها أعشاباً مختلطة، نظفه جيداً، ثم مزّقه إلى أربع قطع.

كوَّمَ هشيم أعواد كانت في زوّادته، ثم أخرج سيخ حديد معقوف وآخر مدوَّرٍ، نقرهما ببعض نقراً قوياً متوالياً إلى أن بدأ الشرر يقدح، وما إن علقت إحدى الشرارات بالهشيم حتى انبعث منه الدخان، نفخه بلطف، إلى أن انفجرت شعلة، فوضع ما جمعه قبل قليل من الأغصان الجافة عليها، وانتظر لتذكو النار، فلما قرّ لها وَضَعَ قطعتين من قطع الأرنب على صخرة بجوار لهبها.

لمس وهو ينتظر نضج اللحم بعض التحسّن. فكَّر بأن الأعمال التي قام بها قبل قليل فصلته عن تفكيره المزعج بما حدث يوم أمس. استند إلى جذع السدرة، وفتح الزوادة وأخرج منها قطعة ذهب صغيرة، تذكر وجه ابن باتل وهو يرميها بحضنه صباح اليوم ويطلب منه الرحيل:

«لا مقام لك عندنا يا ابن أختي».

وجهٌ بُصِقَتْ خيباتُ الدنيا عليه، رأى ذيبان في ملامحه أنّ

وجوده أصبح خزياً، فأخذ الزوادة وترك كلّ حاجياته خلفه، حتى صُرّة ملابسه تركها، أحسّ بأن ملابس الدنيا لن تستره إذا كان هذا وجه خاله معه، وقبل أن يخرج قال خاله:

«هل ستعود إلى أهلك؟».

هزّ ذيبان رأسه نافياً دون أن يلتفت له.

«هناك بلدٌ يُقال لها الكويت، اذهب إليها، ستجد عملاً، بع قطعة الذهب التي أعطيتك، واشترِ بثمنها ما تترزق الله به، هل تعرف كيف تذهب إليها؟».

هز ذيبان رأسه نافياً دون أن ينبس ببنت شفة.

«تخرج باتجاه الروض الأخضر، ومن خلفه تنزل إلى الصحراء، وتمضي مستقيماً حتى تأتيك حمراء النفود(*)، أنتَ تعرفها، عند حمراء النفود قرية، بجانب القرية بئر تتزوّد منها القوافل الذاهبة إلى الكويت والبصرة، اذهب مع إحداها».

وقبل أن يخرج رأى امرأة خاله تنظُر إليه بارتياح بالغ، وكانت قد سفحته بنظراتها طوال الليل تشاهده يبكي.

خرج مقاسياً صفعات العيون على خدّه قبل أن تركله على مؤخرته خارج المضارب.

«لا لوم عليهم» أعاد قطعة الذهب إلى الزوادة «ما فعلته أمس يكفي لجلب العار على العرب جميعهم. لو.. لو أنني هربتُ قبل

(*) جبال رمال متحرّكة.

أن يجيئوا، لو أنّ امرأته الملعونة لم تتكلم، لو. . لو. . لو. . لما رآني الناس وأنا. . ».

اضطره الحرج إلى تغيير تفكيره.

نظر إلى السماء الصافية والشمس على طرفها الغربي، كانت جميلة بشكلٍ لم يَرَه من قبل، تاق إلى ربابته، لو أنها معه لأنشد في مديح السماء في هذه اللحظة، هي الوحيدة التي بقيت كما هي عليه بعد ما حدث.

أرخى ظهره على جذع السدرة، رفع سرواله إلى فخذيه، مستشعراً هفهفة الهواء المحمّل بروائح الأعشاب الخضراء على زُغب ساقيه، يفكّر بالكويت، يعرف أنها البلد الذي مات فيه الشاعر ابن لعبون ودُفن، سمع بعض الفتيات يفتخرن بأن قماش ثيابهن من الكويت، فهل سيجد بها حياة طيبة؟ وهل أهلها سيقبلون بينهم بدوياً؟ . . أهل القرى لا يُدخلون بينهم غيرهم، لكن قد تكون مختلفة هذه الكويت. . فكّر بماذا سيعمل، لا يعرف إلّا الرعي، لكن لا مانع من تعلُّم صنعة، لا بأس في أن يصبح صانعاً طالما أنه سيترك البدو الذين يرون في الصنعة خزياً يفسد به أصل الرجال، ثم إنه قد أتى خزياً بالأمس وانتهى.

لمّا نضج اللحم، كانت الشمس قد شارفت على المغيب، لم تبدُ له فكرة المكوث في الروض آمنة، وبخاصة أن رائحة اللحم ستقود أنوف الضواري من البعيد.

التهم القطعتين، شرب وراءهما ماء، ثم وضع القطعتين النيئتين في الزوّادة، ووضع معهما هشيم أعواد يابسة، خوفاً من أن تمطر الغيوم وتبلّل الأرض ولا يجد عندها أعواداً جافة تُشعل ناره.

بالَ على الجمر، فجال بباله تحت فرقعة الجمرات وهي تنطفئ صورة آخر مرة تبول بها، عصَر حاجبيه، وركّز نظره على شيئه المتدلي وهو يشخب.

«الميدان يا حميدان».

انفرج الجمع عن جسد ضخم، يعرفه ذيبان معرفة تامة مُذ كان صغيراً. جاء حميدان يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعاً، بعيراً منفرج الصدر، وجهه الأحمر الملوّح بالشمس عريض منتفخ، وشعره ذو أربع ضفائر، يتمنطق بحزام يضمّ إلى جنبه الأيمن خنجراً في غمده، وبيده سيف طويل ما إن وقعت عليه عينا ذيبان حتى شهق شهقة الهول، وتقهقر خطوتين إلى الوراء ثم تطلّع خلفه، فوجد عيني ابن باتل توقدان له النيران.

راقبَ آخذاً الحيطة ثقل خطوات حميدان وهو يقترب، وأحسّ، على نحوٍ مخادع، بأنه يقترب من القاع كما لو كانت الأرض تمصّه، تمنى أن تنشقَّ وتبتلعه.

اختلَّ سمعه، صمتت الأصوات كلها، إلّا صوت خطوات حميدان راحت تنبش أذنه عن أرعب صوت سمعه طيلة حياته، وتأخذ محلّه.

قفز نبضه.

ددم ددم.. ددم ددم

ددم ددم

بلغه صوت ابن باتل، خافتاً، بالكاد سمع: «لا.. ما.. قبل قلي..».

ددم ددم.. ددم ددم

ددم ددم

بدأ صوت أنفاسه يصدر من الداخل كأن صدراً آخر داخل صدره يتنفس من أذنيه، وما إن توقف حميدان أمامه، ورأى في عينيه المكحّلتين الإصرار على قتله والكراهية لرؤيته حيّاً، حتى سقط السيف من يده مرة أخرى وارتعدت ساقيه.

ددم ددم.. ددم ددم.. ددم ددم.. ددم ددم

يعرف أنّ سقوط السيف في النِّزال، أمرٌ لا يمرّ على حياة الرجل مروراً عادياً دون أن يترك لطخة سوداء في اسمه.

ددم ددم.. ددم ددم.. ددم ددم

نبّهته ابتسامة حميدان الساخرة إلى أنه لن يطول اليوم بحياته، ومن أمامه راح قوم الغضّاب يتبادلون النظرات وإيماءات الرؤوس الشامتة.

حمل سيفه بحذر، فجاءه صوت خاله مرة أخرى خافتاً ومبعثراً أكثر من المرة الفائتة: «هيّا.. واقفز... عش كال.. أو.. كالرجال».

انقصف حميدان عليه، فقفز ذيبان وركض بضع خطوات ثم توقف، كلمتان فقط كانتا تترددان في رأسه: «كر وفر.. كر وفر.. كر وفر».

ددم ددم ددم ددم ددم ددم ددم ددم

اندفع حميدان عليه مرة أخرى، وما إن قفز ذيبان مثل قفزته الأولى حتى شعر بأن شيئاً غير طبيعي يحصل.

أحس بشيء نبش قفاه، ثم تبادلت الأرض والسماء مواقعهما في عينيه لوهلة، ثم ارتطم شيء صلب بظهره، لم يمضِ طرف اللحظة حتى أدرك أنّ حميدان قفز وراءه بخفّة، وجرّه من جديلته فأسقطه على الأرض، وأنّ سيفه طار من يده، وأنه سيموت الآن.

جثم حميدان فوق صدره وسحب خنجره من غمده استعداداً لنزع روحه.

دم

تشنجت أصابع ذيبان، كعباه يرفسان الأرض، لم يكن في عينيه سوى نصلِ الخنجر الحاد، وبومضة مجنونة فكّر «الحياة هي الجنة».

ازداد النصل حدة، فأمسك يد حميدان يحاول الذود عن رقبته، غرس حميدان الخنجر في الأرض، ولكمه على أنفه لكمتين بعثرتا السماء في رأسه، وسرعان ما وعى إلى أن يدَيه مقيدتان، إذ ثبّت حميدان إحداهما تحت ركبته، وأمسك الأخرى بيد، وباليد الثانية سحب الخنجر.

«تكفى»(*) صرخ ذيبان باكياً «تكفى يا حميدان، أنا مسكين»، بصق حميدان عليه:

«وقبر متعب لأحزنّ رأسك».

(*) أرجوك.

كانت هذه الكلمات كافية لتميته من الهلع، وفوق هذا أتت في نبرة حارقة مقدّمة على الفعل.

تداعت أعصابه وخرج كلّ شيء فيه عن سيطرته، فشعر بحرارة الخوف تتدفق بين فخذيه. فلتت مثانته وانفجر بوله بدفق غزير وحار، قفز حميدان عنه، ووقف ينظر إلى رقعة ثوب ذيبان تبتل وإلى جدول صغير من البول يسيل على الأرض، ابتعد عنه:

«بلتَ على نفسك».

تعكَّر وجه حميدان كما لو أنّ الذي حدث أمامه أفسد عليه الأمر كله:

«رجل وتبُول على نفسك؟».

أعرض حميدان إلى قومه، وصاح:

«بال الرديء».

تعالت الهمهمات في سمع ذيبان.

فَرَدَ حميدان يديه أفقياً وحرك كفوفه تدويراً بـ «ماذا أفعل؟».

زحف ذيبان راجعاً وراءه، ملوّثاً ثوبه بطين البول والتراب.

عاد حميدان وأمسكه من كتفه ورفعه عن الأرض، متوجهاً به نحو قوم ابن باتل، صاح:

«يا ابن باتل.. ابن أختك بالَ على ثوبه من الخوف.. حتى البهائم لا تفعلها.. هل هذا ما استطاعته بطون نسائكم؟».

فتوجّه به إلى قومه:

«يا رجال.. عار عليّ قتل رجل بال على ثوبه».

ثم رجع به مرة أخرى إلى أخواله، وراح ذيبان يبكي ويلوح رجليه الهواء ناظراً إلى وجه خاله ابن باتل يتقلص إلى أن اندمجت ملامحه في بعضها من الاستياء.

أحسَّ أن أمه تلطم الآن في مكان ما من العالم، وتشقّ ثوبها ممّا فعله للتو.

صرخ حميدان:

«خذوه.. شمّوا بوله».

ثم طرحه على الأرض وبصَق عليه، وقال بصوت مضغوط:

«أنت ميّت من الآن، تعيش كالميت، لست كفؤاً لأن يكون دمك بدم أخي متعب، حياتك أحب إليّ من أن أقتلك، ستكون عاراً على قومك يا كوبان». وأعاد خنجره إلى غمده، مستديراً ليلتقط سيفه من الأرض، ثم مضى إلى قومه.

ددم.. ددم

ددم.. ددم

ددم.. ددم

ارتدى ثوبه، تطلَّع قليلاً إلى السماء فوقه، لفّ رأسه بشماغه وعقده من الخلف، ثم حمل الزوادة على كتفه ومضى سالكاً طريقه بين الروض وأشجاره.

سار وئيداً فوق أعشاب الروض الخضراء، يحاول أن يطأ المكان الأقل اخضراراً، من قربه قفزت أم سالم(*) قفزتها المعروفة، وحطّت مكانها وصفّرت، فكّر: أم سالم تقفز دائماً وتصفّر، لم أشاهد يوماً أم سالم تقوم بغير هذه الحركات، أم سالم تقوم بما عليها كأم سالم.

«ثقيلة» غيّر مكان الزوادة إلى الكتف الآخر «لا يطيقها إلا الحمير».

راح الروض ينطوي تحت قدميه إلى أن اتضحت له الصحراء

(*) طائر المكاء، أو القبرة الهدهدية.

من خلف مرتفع ينهض عند آخر الروض، وقف يتأمل المنظر، بدت له الصحراء كخدٍّ عجوز حانية تبتسم، منحدرات وشقوق أخاديد سيل الأمطار، تهبط متعرِّجة وتغور سحيقاً إلى البعيد، أرض صفراء معشبة قليلاً هنا وهناك، مليئة بالاحتمالات، تترامى أطرافها يميناً وشمالاً إلى غير حدّ، جدباء ووافرة العطاء، لا تمنح نفسها إلّا لمَن يُجالد فوقها الصعاب، فوق هذه التشبيهات التي انبثّت في ذهنه بدت له الصحراء ساحرة، الوحدة التي تتأتى بها وحدة آسرة، مختلفة، حيث يكون المرء وحيداً بصحبة نفسه، وأن يكون المرء بصحبة نفسه في حدِّ ذاته كافٍ للراحة.

أخرَجَ قطعة الذهب التي أعطاه إياها خاله ابن باتل، تفرّسها يبحث عن بريقها الذي كان يحب أن يراه على أعناق الفتيات، لم يجده، انطفأ شيء ما في الذهب، لم يعد يعني له أي قيمة، وبحركة اتسمت بعدم المبالاة، رماها في الروض قبل أن ينحدر من المرتفع.

هبط إلى تربة غير متماسكة، مغايرة لتربة الروض، أحبَّ انغراس كعبه وهو يطؤها وتخلُّل الرمل الخشن بين أصابع قدميه. بقي القليل من الوقت وتأفل الشمس، مدّ الخطى، يجب أن يبتعد عن الروض قدر المستطاع، قد يجد بعد أن يجتاز هذه البقعة العريضة شجرة أثل مرتفعة، أو ربما دحلاً(*) يغور في الأرض،

(*) كهف في القاع مائل إلى جوف الأرض.

سيمكث بأيهما يجد حتى تُشرق شمس الغد، ثم يكمل مسيره إلى قرية النفود.

أخرج القربة وشرب منها مقدار فمه مرتين، راقَ له ماؤها البارد ذو الطعم الترابي الخفيف.

أفعمه وهو يمضي نوع جديد من صفاء الذهن، لم يسبق أن شعر بأنه يطفو فوق صفحة ماء راكدة ونقية، كأنَّ الصحراء أعطته مُخّاً غير مُخِّه المعبأ بالمصائب الفائتة، أو كما لو أنه رمى كل شيء خلفه مع قطعة الذهب عند مرتفع نهاية الروض، خُيِّلَ إليه أن الصحراء عالم خالٍ من الازدراء، يستطيع أن يبدأ فيها أي حياة يريد دون أن يزعجه الماضي.

قرر أن يضع عن كاهله ما كان من حياته، هكذا بسهولة، وكأنه يضع الزوادة التي على كتفه بكلِّ ما فيها، وسيترك نفسه القديمة، «أنا الآن جديد» همس وهو يدفع نفسه إلى الأمام بحماس «لستُ أنا السابق، نعم أنا الآن لست أنا الذي في الأمس، ولن أعود لما كنت عليه منذ الآن».

توقف، ورفع صوته «أنا ذيبان بن هياب فارس الرجال»، صمت برهة، يستمع لصوت الصحراء المهيب الذي يتَّخذ من السكون التام صوتاً جهورياً له، وشعر على نحو خفيٍّ بأن الصحراء تؤيد ما قاله تأييداً صريحاً بصمتها، فخالجه الحماس وزاد: «ذيبان الذي سيجابه الموت ولن يخاف»، صمت يُنصت

إلى السكون مرة أخرى شاعراً بأن شيئاً ما يرتفع في أعماقه وفي طريقه للخروج، ثم صرخ: «ذيبان الذي..»، تحشرج.. «الذي لا..»، ابتلع ريقه: «الذي لا يبول على..»، شهق وتهدّج صوته: «.. نفسه عند النزال»، فبكى، وسار ينشج ويمسح دموعه بطرف كمّه، وفي يقينه أن البكاء سيخفف عنه عناء كُرْهِ نفسه.

منذ بكى ضحى الأمس بين يدي حميدان وهو يكبت البكاء في صدره، ليس لأن البكاء ليس للرجال كما يتداولون، وإنما لأنه يدل على ابتلاعه لفعلته، على رضاه عن نفسه لأنه ندم ندماً لا يناسب فعلته التي تتطلب شعوراً أكثر إيلاماً من الندم، يريد معاقبة نفسه، كأن يخنقها حتى تزهق جزاءً لوضاعتها.

أما الآن فيشعر بأن التعب امتص شعوره بالذنب، وتذكّر كيف كان يفكّر هذا الصباح بأنه مهما كان لا يمكن لأحد أن يفعل ما فعل.. بل إنه من شديد لومه نفسه صباح اليوم فكّر مقتنعاً في لو أنه مات لكان خيراً له.. الموت ليس به من عار.

سار يفكّر: لكن كيف بي إذا متّ، الموت يفقدني نفسي، وهي كلّ ما لدي، قطعت شوطاً من عمري لا أملك شيئاً، أرعى الأغنام بمقابل زهيد لا يمكن كنزه، أبي لم يترك لي غير حمل اسمه الثقيل على كاهلي، نفسي هي كل ما أملك.

مسح أنفه بكمّه، وحدّث نفسه:

«ماذا لو وصل ما فعلتُه إلى أبناء عمومتي، ماذا سيفعلون، لا بد أنهم سيعلمون عاجلاً أم آجلاً، لكن، تبّاً لهم، أين هم عني من قبل؟».

اتسع صدره، مسح دموعه، وراح يفكّر بالكويت: «سأعمل أي شيء، وقد أتزوج، لم لا، قد أجد علاجاً لخصيتي».

لمس خصيتَيه مستذكراً السبب الذي جعلهما تضمران، أصيب فيهما ثلاث إصابات منعته الخوض في الشهوة؛ الأولى حدثت في صغره عندما كان يشاهد تيساً يقرع عنزة، دفعه الفضول، فاقترب منهما ليستوضح العملية، لكنه اقترب كثيراً بحيث أثار التيس الهائج وجعله يترك أنثاه وينطحه، جاء قرنه على خصيتي ذيبان، فطار وحطّ على الأرض باكياً، والثانية كانت من حمار حاول أن يركبه، فرفسه، أصاب حافره المكان نفسه الذي أصابه قرن التيس، فتلوّى تحته نهاراً كاملاً، وكان آنذاك في الثانية عشرة من عمره، والأخيرة حدثت في مقتبل بلوغه وبداية افتراش لحيتِه حنكَيه، سقط من فوق ناقة وكان يحتضن ربابته، فانغرست العصا التي تربط الوتر في المكان ذاته الذي نطحه التيس ورفسه الحمار، ومن يومها وهو كلما توتر قضيبه يشعر بألم حاد ينغرس في خصيتيه، يُعيد قضيبه إلى حالة الركود، ومن يومها وهو يكره امتطاء الدواب.

كم هو جميل أن يتخيل حاله لو يكون له بيت طين وزوجة تطبخ وأولاد يلعبون. تنهّد بحرارة لفكرة أن يكون له أولاد يلعبون.

أحسَّ بأنّ التفكير بالمستقبل جيد، وليس كما كان يظنّه يجلب المتاعب، بل ويطلق روحه من القنوط والخشية اللتين تقبضان عليها.

وقف مخرجاً القربة مرة أخرى، وشرب يحدِّث نفسه: «اللحم المشوي يجلب العطش»، ومضى يُكمل الطريق.

ربما هي المرة الأولى التي يشعر بأنه وحيد إلى هذا الحدّ من الصفاء، دون أن يكدّر وحدته احتمال وجود مخلوق يفسد عليه نقاء اللحظة وتألقها، مع كلّ خطوة كان قلبه يخفق براحة أكثر ويتحرَّر من ركام الهموم التي أثقلت صدره.. الانعتاق.. ما يحسّه الآن هو انعتاق صريح من قواعد الحياة التي فرضوها عليه ولم تكن تلائمه، ماذا لو قضى حياته وحيداً هنا؟ قد تكون الصحراء مكاناً آمناً إذا أحسن المرء مداراة مزاجها، قد تحميه من الضواري بالضواري نفسها، وتمنع عنه سموم ذوات السموم بسمومها. أحسّ بأنّ في العزلة عن البشر راحةً تامّةً وأبديةً من كلّ ما من شأنه تكدير الحياة، البشر وحدهم مَن يجب أن يلزم منهم حذراً أشدّ من حذره بواغت الصحراء. ملأ صدره بالهواء النقي وشعر بأنّ الصحراء تدغدغه بهذا الصفاء الرائق، وبشكل آخر تمنحه العزاء، هو الآن وحيد، ليس معه غير نفسه الجديدة، يستطيع أن يقول ما يشاء، ويفعل ما يشاء، لن يُخجله شيء فعله ذيبان السابق، ومستعد لمواجهة أي تحدٍّ.

* * *

بعد مسافة طويلة قطعها متدبراً التسلسل الخفيّ لأحداث حياته، ومتحسساً التغيير الذي طرأ على نفسه، خالجه إحساس بأنه ليس وحيداً.. معه أحد.. يتبعه.. ويختبئ عنه.

نظر وراءه فوجد المنظر نفسه الذي أمامه، لا تغيير سوى

بالاتجاه، ابتعد كثيراً عن الروض وعن قوم أخواله، وعن نفسه القديمة، لا يريد لشعوره بأنه مُطارد أن يفسد عليه نعمة التغيير التي هو بها الآن.

أكمل سيره في الاتجاه ذاته، حيث كانت الوهاد تتماوج على مدّ نظره، والأفق ينفتح أوسع فأوسع كصدر محبّ. طرأت على باله الربابة، تاقَ إلى سماع أنينها الذي يشبه أنين ناقة فقدت حُوارها(*) «يشبه لوعة الفَقد» كما وصفتها غالية، ألمَّت به حمى استذكار غالية، راودته ذكرى اللقاء التالي بعد أن اعترف لها بحبّه، واضحة على نحو غريب، تابع مسيره وترك ذاكرته تسرح معها عندما سألته بعد أن تطرّفا الغدير وجلسا تحت ظل شجرة أثل:

- «ما الدليل على أنك تحبني؟».

- «لا يوجد دليل على الحبّ إلا الكلام».

- «هذا يعني أنك قد تكون كاذباً».

- «لا لست كاذباً».

رمته بحصاة صغيرة:

- «كيف أتأكد أنك تحبّني حقاً؟».

التقط الحصاة من حضنه:

- «لا أملك دليلاً، كل ما أملكه هو: أحبّك، إن صدّقتِها فلأنها حقيقة، وإن لم تصدّقيها فلا شيء لديّ غيرها».

صمتت لحظة ترسم بأصابعها على التراب، قطع ذيبان الصمت:

(*) اسم ولد الناقة منذ ولادته حتى يفطم.

- «لو كان للحبّ دليل لما اضطر الناس لقول الشعر، بل لما أصبح للكلام ضرورة».

- «ربما.. لكنك كنت تتغزَّل في شعرك قبل أن تراني، منذ كنتُ صغيرة وأنا أسمع أنك تعزف للفتيات عند الغدران والآبار».

- «أحب الحديث مع النساء، لا أكذب عليك، الحديث معهن لا يوجع الرأس كما هو مع الرجال، وقلت لك بأنني أحببتك قبل أن أراك، قبل أن أرى الغدير أيضاً».

ضحكت:

- «أي جنون هذا الذي تقوله؟».

- «ليس جنوناً.. دعيني أشرح لك»، عدّل من جلسته «هل تمنيتِ شيئاً في حياتك، خاتمَ ذهَبٍ مثلاً أو عِقد جواهر، أو..».

- «تمنيت حصاناً يطير» قاطعته.

- «طيب، لو نفترض أنك شاعرة، وهذا الحصان يعني لك الكثير، فستعبّرين عن تمنّيك الحصول عليه بالشِّعر، وتصفين شكله في أشعارك، شكل صادق، حتى لا يشكّ السامع أنه موجود حقيقة، ثم، إذا وجدتِ أمامك حصاناً أجمل منه، أجمل من شكل الحصان الذي يطير والذي وصفتِه في أشعارك، فستقولين هذا الذي أحببته من قبل، و(من قبل) هذه لن تستطيعي تحديدها متى كانت، قبل غمضة عين، قبل عمر طويل جداً، لن تعرفي، كلما فكرتِ بمتى كانت ستزدادين حيرة بها وجهلاً، هذا في حصان يطير، ضاعفي شعورك لو كان هذا الشيء الذي تمنيتِه بشراً، كما تمنيتُ أنا أن أجد حسناء، تلتوي لها الأعناق، وفعلاً

وجدتك، أجمل من الحسناء التي كنت أتمناها، أجمل من حصان يطير، هل فهمتِ الآن؟».

رمته بحصاة أخرى:

- «لم أفهم، لكن أحسّ بأنك صادق، يا شاعر، وأرى أنك..».

أسقطه الشعور بأنه مطارد من سماء المخيّلة إلى أرض الواقع فجأة.. تقدَّمت شكوكه آخذة مكان إحساسه بالصفاء.. لا يعرف من أين ينبع شعوره بأن هناك من يتتبعه أو ما سببه، لكنه متيقّن بأنه مُطارد وحسب.. ثمة عينان تتبعانه. بحث ولم يجد شيئاً.. ليس من أحدٍ سواه. شكَّ وهو يلتفت يميناً وشمالاً بأنّه ربما أحد فتيان الغصاب يتربص به ليقتله. نظر إلى الشمس، غابت وبقي الشفق يكلِّل غربي السماء.. حدّث نفسه: «يجب أن أجد ملاذاً».

حثّ الخطى سريعاً، ثم توقَّف فجأة، حيث شعر بأنَّ شيئاً ما أسرع معه. اتجه برأسه وراءه.

«يا رباااه» ابتهل جازعاً وقد اقشعرّ جلده، رأى رأسه المدبب الصغير الملعون يتلصص عليه من بين صخرتين، «ذئب» همس وسمع لصمت الصحراء ضحكة مجلجلة لوقوعه في فخ إغرائها له في صفاء ذهنه، أدرك بأنّ موته سيلعب معه لعبة النجاة إلى أن يرديه، فكّر: ما العمل الآن؟ وسّع النظرة على وجه الصحراء المكفهرّ وهمس: «الهرب».

أسرع المسير وطائر نبضه يحلّق خافقاً بقلبه إلى بلعومه، كشّرت الصحراء فجأة عن قبحها في عينه، أصبحت جرداء صمّاء وكلّ ما عليها يحتضر، التفت إلى الذئب فإذا به يخاتله مهرولاً مخفضاً رأسه للأسفل.

«الموت يا ذيبان».

أحسّ أنه على وشك أن يبول.

الفصل الثاني

ليس أخطر من مواجهة ذئب جائع في صحراء جافية، يعي ذيبان هذا جيداً، يكون الذئب حينها موتاً لا مفر منه إلا بالموت نفسه، لأنّ داء الجوع يظلّ ينهش جوف الذئب نهشاً مميتاً إذا لم يجد شيئاً غيره ينهشه، وليس له دواء إلا اللحم الطازج، والآن ليس أمامه لحم طازج سواه.

انبثّت الأصقاع أمامه، كاشفة عن تيهٍ لا ينتهي وأفق يتماهى بعيداً ولن يقترب، كل خطوة يطويها من الطريق تمدّ، على الطرف المقابل، خطوة أخرى من التيه.

راح يرمل مباعداً الخطى، ليس أمر التيه الآن، فليغيّر اتجاهه إلى أي ضياع، الآن شأن الهرب «النجاة النجاة».

الشيء الأهم الآن هو ألّا يركض، الركض يهيّج الذئب، يُشعره باحتمال ضياع الفريسة فيعجّل انقضاضه.

«إنه متمرّس. لديه تجارب كثيرة في الصيد»، قال في نفسه «الملعون، متأنٍّ وحذِر، ويعرف أنه ليس ثمة ديار قريبة من هنا،

وأنّ الشمس ستغيب ولا تزال الديار بعيدة، إنه ينتظر الليل، ليخفي الظلام البصر، وتلبس النفس أوهامها»، همس وهو يلهث: «يا ربّاه».

وعلى وقع الخطى السريع نفسه تابع مفكّراً بوسيلة ينقذ بها روحه، لا سيف لديه ولا خنجر، لكن.. «المقلاع المقلاع معي قد ينفع، بل ينفع».

تطلّع إلى الوراء ورأى الذئب لا يزال يحافظ على المسافة ذاتها.. قريب كأنه يستعد للفراق، بعيد كأنه يروم الوصل.

أظهر الذئب نفسه تاركاً الاختباء، توقف ذيبان فجأة ليستوثق من مقصده، إذ لا يزال في داخله أمل يستخفّ بعقله بأنه لا يترصّده، ومن البعيد توقف الذئب مطرقاً رأسه لليمين كأنه ينظر للجانب الآخر من الأفق، لحظات وأعاده إلى ذيبان ثم دار حول نفسه وأقعى مؤخرته على الأرض. فهم ذيبان الحركة، «إيهبا»(*) تمتم بعدما تأكدت له مخاوفه. الذئب ينتظر الليل ليهجم، يجب عليه الآن أن يتصرف وإلا فسيصبح عشاءً لذئب تسري اللعنة في دمه، «لعنات وليست لعنة واحدة» تمتم وهو يستأنف هروبه، متذكراً ما سمعه من إحدى العجائز في صغره، بأن أصل الذئاب يعود لكلب وفيّ، جاع مرة فافترس من قطيع صاحبه نعجة، أكل رقبتها ويدها، فجاع بعد أسبوع وأكل جزءاً من أخرى، هكذا ظلّ لمدة شهر، كل أسبوع يأكل عضواً من نعجة، حتى اكتشف

(*) فليخسأ.

الراعي، في ليلة جمعة مباركة، ما يفعله الكلب، فدعا عليه بألّا يشبع وأن يجعل الله الجوع سبب موته هو وذريته، فاستجاب له الله، وأتت من ذلك الكلب الذئاب التي تنتشر في الصحراء، تتواصى فيما بينها على نهش قطعان الرعاة انتقاماً من دعوة ذلك الراعي.

«لن تأكلني يا ابن الكلب» قال يخفّف من جموح نبض قلبه: «لن تأكلني ما دمت حياً».

تذكّر، فأخرج قطعتي الأرنب اللتين بقيتا معه، رماهما وأكمل هروبه.

شعر بأنه تحرّر من شعوره المذلّ ممّا جرى له، الخوف من الذئب أزال الضغط الهائل الذي كان يكبت روحه. تبخرت إهانة حميدان، أصبحت رماداً لا يساوي هبّة هواء.

فكّر: «أين أذهب الآن؟».

استطلع، فوجده قد ترك قطعتي الأرنب وراءه، همس لاهثاً: «يريد لحمي ابن الكلب».

كانت الأرض تواصل الامتداد أمامه بمعالم متشابهة كأنها تكرار للمنظر نفسه، كما لو كان المكان ثابت والزمن يجري، قاع فسيحة منفرجة، تغور سحيقاً في المدى، تلتم بين مناكبها نباتات الثندة والعرفج والرمث بمسافات قريبة وبشكل لا يمكن معه تمييز بقعة عن بقعة أخرى.

تلاشى الشفق كلياً تاركاً زرقة السماء الغامقة لليل.

فكّر أن هذه الخطى التائهة تقوده إلى المزيد من الخطى التائهة، يجب أن يثبت على اتجاه ليخرج من هذه البقعة، ركض بعينيه في كلّ اتجاه، لعله يجد شيئاً يواريه، أجهد بصره حتى خسئ راجعاً بلا شيء.

القاع التي أمامه خَبْت، تطمن وتتسع وتزداد وعورة كلما توغل، عليه أن يراعي فيها موضع قدمه الآن وإلا تعثّر بكثافة النباتات وسقط ثم سَهُل على الذئب التهامه، ألقى نظرة إليه فإذا هو يتواثب كقطعة مسخت من الموت، متحاشياً سيقان النبات، رماديٌّ رهيبٌ يبعث شيطان الرعب في النفس.

لم يطأ هذه المنطقة من قبل، لا يعرف ماذا أمامه وما الذي ينتظره، كلّ ما لديه هو أوصاف مجتزأة لم يُعرها انتباهه كان قد سمعها من الذين يعسّون المكان طلباً للمرعى وللماء:

«دعْ نجم الجدي على حجاجك الأيسر وامضِ وستصل إلى الصمان». . «إذا تغيّر لون الأرض من الأدهم إلى الأصفر وانقطع الحصى فأنت في جيان الصمان». هذه هي الصمان إذن، الأرض العنيدة المتشابهة، تخصّ إحدى القبائل، مراعيهم وآبارهم ومقاطنهم، يمنعونها على غيرهم، لكنهم يسمحون فقط بالعبور، تمنّى لو يجد أحدهم ليستنجده من هذا الملعون الذي يشتهي لحمه، غير أنه لا شيء أمامه غير الخلاء الفسيح المضلل.

«يا ربي.. رباه» ابتهل رافعاً رأسه للسماء.

«آآآآه» تأوّه لاهثاً مُنزِلاً بصره للأرض.

كاد يقع، تماسك، ومضى يخبّ خبباً يشبه الهرولة غير أن خطاه متقاربة كي لا يتعثر ولا يستفز الذئب.

سيجد مأوى، لا بد أن يجد مكاناً يمنعه من الذئب، شجرة طويلة تكفي، ابتهل: «شجرة واحدة فقط يا ربي»، ترفعه عالياً عن أنياب هذا المتوحش، الأثل هنا متوفر بكثرة كما سمع: «أين اختفى؟»، لا يرى شيئاً على امتداد بصره، لعلّ البدو اجتثوها وأوقدوا منها، أو قد تكون في مكان ما بعيد عنه من هذه البقعة. كان تيار الزمن يسبق تيار تفكيره، مهما حاول الزمن يسبقه.

أمعنت القاع في الوعورة، مضطربة في استوائها، وراحت نباتاتها المتشابكة تشكِّل عوائق وحواجز، إذ أصبح الخبُّ الآن صعباً، ليس مشياً فقط، بل مشيٌ واستدارة توخٍّ هنا وقفزٌ واندفاع هناك، أجهده وهو يقوم بكلّ هذا، أجهده أكثر أن لا وجهة لديه.

رجع يرمل محاذراً التعثُّر بثندات كبيرة تشبه أسنمة الإبل تخللت طريقه، وقافزاً فوق الرمث الذي يكسو تقريباً كلّ الأرض أمامه كفروة رأس عجوز معمّر، وقد كُشِطَ جلدُ قدميه من أشواك سيقان النباتات التي يضربها وهو يتجاوزها، تابع المضي، على الرغم من كلّ شيء، رافعاً ركبتيه إلى مستوى سرّته.

شعر بأنه لا بد من التوقف والتقاط بعض الأنفاس، ارتفع

لهاثه، وأصبح أشبه ما يكون بالتأوّه: «ستركَ.. ستركَ.. يا ربي».

ذهبت زرقة السماء الغامقة تدكن، وتوشك أن تنطفئ، لتسود على إثرها حلكة الليل. مخاض ولادة يوم جديد حزين شَعَرَ ذيبان أنها تنتاب السماء الآن، وسوس بإحباط: «إنه يرى في الظلام أفضل منه في الشمس، ملعون، ويشمّ الخوف، هذه الأرض لن تؤويني، بل ستهيّئني له، أنا ميت لا محالة». تذكّر.. لا تزال أمامه فرصة؛ أخرج المقلاع من زوادته، شدّ طرفيه، فرصة ضعيفة لكنها جديرة بأن تكون فرصة، إذا أمكنَتْه إصابة رأس الذئب، إصابة جيدة، فسيتوقف الملعون عندها عن الجوع إلى الأبد. «إصابة جيدة» تمتم، والتفت يتفقد الذئب، فرآه لا يزال يخاتله كما تركه قبل قليل.

لم يبقَ على الليل شيء وتمسي الفرصة مواتية للموت؛ شعر بأنه يجب عليه أن يستريح الآن. السفرة تزيغ العين في هذا الوقت؛ السماء وهي تَغْمُق تدريجياً للأسود الكاذب تطلق يد الأوهام في تلبيس الأشياء على النفس مع اندماجها بالظلام، يدخل العالم فيها إلى الاحتمال، ليس إلى التوكيد.

أحسَّ بأنه سيموت إن لم يلتقط أنفاسه: «الراحة.. الراحة فقط».

توقف مديراً وجهه للذئب الذي توقف وأقعى في مكانه بعيداً

عنه، ثم ارتمى على ركبتيه وأخذ يفُحُّ كأفعى حانقة، أخرج القربة وذكّر نفسه: «كثرة الشرب على التعب ترهق القلب»، ملأ فمه وحسب. لهث، أرجعها وعبثت يده بالزوادة قليلاً، فخرجت بقطعة أقط، تفتتت في فمه، لاكها وابتلع حموضتها بعجالة، يجب أن يستعيد عافيته بسرعة، كيف له هذا والثقل في بدنه يزداد ورئتاه توشكان أن تخرجا من بلعومه ودمه مختنق في عروقه؟ «أوه»، تذكّر، وقف، ومشى إلى نبتة عرفج أمامه تفترش سيقانُها الخضراءُ، المزدانةُ بزهراتها الصفراء، الأرضَ. اقتطع منها ساقاً على رأسها ورقات خضراء ولاكها، متذكراً أن الرجال يلوكونها في النوائب لتوقظ انتباههم، تضوّعت عصارتها الحامضة في حلقه، حامضة ولزجة، ابتلعها، بصق الأوراق والساق، اقتطع ساقاً ثانية وفعلَ بها كما فعل بالأولى، ثم ثالثة أكثر من الأوليين أوراقاً.

يجهل ماذا سيواجه من الذئب، لم يقِسْ قوته إلى الآن، جُلّ ما لديه أخبار عن قوة الذئاب وشراستها وشدة دهائها، غير أن هناك أيضاً قصصاً سمعها عن رجال شجعان هزموا ذئاباً بمواجهات ضارية وأيدٍ خالية من سلاح، لعله يستطيع هزيمته «لمَ لا؟»، أو ربما يقدر على شيء، أي شيء يبقيه حياً إلى شروق شمس الغد، إذا رأى الشروق فهذا في حدّ ذاته حياة، غير أنه لم يجد في نفسه استعداداً لمواجهة ذئب.. وجائع.. وفي صحراء تداهنه.

أكمل طريقه بخطى واهنة.

راح المكان يضيع أمام إحباطه، وجاء اليأس ليستلقي في شعوره بابتذال.

«الذئب»، قال بصوت عالٍ منتبهاً إلى أنه انغمس بحلكة شعوره، واتجه إليه برأسه، فإذا بالمسافة التي بينهما تقلصت إلى النصف.

لم يتبقَّ إلّا القليل ويُحكِم الليل سواده على النواح، «لم يعُد هناك وقت»، سارع خطاه، وجد حجراً مدبباً، انحنى يلتقطه من الأرض وهو يمشي بسرعة صاعداً ظهراً مرتفعاً من القاع، وقع شماغه، فتركه وأكمل.

تفقد الذئب فإذا هو أقرب من آخر مرة، عيناه الصفراوان بدتا واضحتين ومثبتتين عليه: «سيأكلني الآن» وسوس.

هرول نازلاً مع الأرض، وجد حجراً آخر التقطه بسرعة وهو يتخبط حتى تمالك نفسه من التعثر، ومضى يقفز ويهرول فوق النباتات الكثيفة. نظر خلفه، فوجد الذئب يهرول مكشِّراً عن أنيابه «الموت يا ذيبان» صرخ. أخرج المقلاع، ألقمه أحد الحجرين، زاد من سرعة هرولته إذ لم تسمح له وعورة الأرض بالركض، دخل عقله في حالة من الجنون، هي خليط من الرعب والقنوط والأسف على النفس، ومن بين كل الصور بذاكرته برزت صورة أمه عابسة.

سمع لهاث الذئب يقترب، استطلعَ، راعَهُ المنظر، إذ رجّح أن عشر خطوات على الأكثر تفصل بينهما، اقشعرَّ بدنُه بالكامل مطلقاً صيحة غريبة، صيحة بهيمية خالصة، تراءى له الموت بكل

أشكاله وتفاصيله، غامضاً ولا يحمل أي بشارة للخير. تكاثفت النباتات أكثر، عضّ طرف ثوبه وراح يقفز متفادياً عروق الرمث وسيقانه ونتوءات الثندات، اختفى المكان أمامه، لا يوجد مكان للهرب إليه، كأنما يتخبط وحيداً مع الذئب في بقعة واحدة تتنقل معهما.

حاصرته نباتات الثندات والحرمل والعلندا بكثافتها وعلوها الذي يصل إلى صدره، لم يعد القفز الآن مستطاعاً، كأنما دخل في متاهة لا خروج للحياة منها.

صوت خطوات الذئب قريبة منه، عرف أنه حان وقت انقضاضه، توقف مستديراً إليه، يفصل بينهما ثندة مرتفعة، وبحركة سريعة لوح بالمقلاع، في محاولة أخيرة للبقاء، أداره دورتين ثم أفلته، أزّ الحجر في الهواء قبل أن يرتطم بالأرض، أخطأ الذئب ثالماً القاع تحته، فتوقف الذئب، وتراجع خطوتين ثم سكن شادّاً على نفسه. أحسّ ذيبان بأن الذئب شعر بالتهديد فغيّر طريقة الهجوم من الانقضاض إلى الاحتراس.

بينهما أقل من خمس خطوات يستطيع الذئب اختصارها في قفزة فوق الثندة إذا أراد.

تذكّر ذيبان، وهو يرتجف من شكل الذئب المرعب، شعوره عندما وقف أمام حميدان أمس.. الذي يشعر به الآن شيء مختلف، كما يشعر الذي كوته جمرة أمام نار تشتعل. «هذا الذئب أقوى من حميدان» حدّث نفسه «أقوى وأشد بأساً»، ابتلع ريقاً مجدباً وابتهل بنفسه «يا ربّي ربّاه». وجهُه الآن واضح، أنيابه

البيضاء مصقولة وحادّة، أدرك أنه حقيقة وليس وهماً، لأنّ شكّاً ما، رمى في خلده أن كلّ الكون وهم، وهو الحقيقة الوحيدة.

خمّن: لعلّ قوة ارتطام الحجر على الأرض جعلته يُعيد التفكير في الانقضاض.

جعلت يداه ترتعدان ارتعاداً أخرجهما عن سيطرته لدرجة أنه بالكاد ألقم المقلاع الحجر الثاني. تحرَّك الذئب بضع خطوات ملتفاً عن الثندة، وتراجع ذيبان مثلها حتى لم يعُد يفصله عنه إلّا مسافة باهتة؛ لكن الفرصة التي أمامه لا تتكرر، الذئبُ كامنٌ على مدى يتيح له الإصابة الجيدة التي قدّر أنها ما إن تأتِ عليه حتى تجعله لا يجوع مرة أخرى طيلة حياته. بلغت الرعدة إلى ساقيه فأصبح الوقوف لديه عملية صعبة ومجهِدة، زمجر الذئب مُصدِراً صوتاً يشبه صوت شحذ السكاكين، سمع ذيبان به صوت تمزُّق لحمه وطحن عظامه، لوَّح المقلاع يميناً وشمالاً بروِيّة، فتراجع الذئب خطوتين، شعر بأن الذئب يخشاه.

وَمَضَ شعور غريب في خلَد ذيبان تلك اللحظة، شعور ليس عقلانياً أبداً، لم يشعر به قط، الخوف والافتخار متداخلان، يُبرِز أحدهما الآخر، الخوف من عدوه، والافتخار بأن عدوه يهابه. لأول مرة يرى أنه مؤثر، ولو على قدْر بسيط، ولو بحمله الذئب على الرجوع بضع خطوات للخلف.

سرّع تلويحه المقلاع، رجع الذئب ثلاث خطوات أو خمساً، لم ينتبه ذيبان لعددهن بالضبط لكنهن أبعدنه كثيراً عن مرماه، لمعت فكرة برأسه: الذئب يجهل ما قد يصيبه من المقلاع، فإذا

أصبته إصابة غير كافية لقتله سيعرف ما يمكن للمقلاع فعله به، وسيذهب الحذر ويأتي دور النوال، استمرار الحياة الآن يتوقف على مهارتي في المقلاع، وحسن اختياري للوقت المناسب.

تراجع على مهل، وهو يلوّح، مجاهداً ربْط أوصاله التي أخذت الرعدة تفككها عن بعضها، قاوم على أن يُبقي قدميه منتصبتين، شيء ما بداخله ينهار ويأخذه معه للانهيار، همس بداخله صوت يقول:

«لا تخف ستصحو من الحلم في النهاية».

دكنت زرقة السماء الغامقة، مندمجة مع كسف سواد الليل. فكّر ويده لا تزال تلوّح بالمقلاع: ها هي العتمة، لن يمضي الحال هكذا طوال الليل، إمّا سيعتاد على التلويح ويهجم، أو ربما سينفد صبره ويترك الحذر ثم يغامر بحياته كما يفعل الذئب عادة إذا اشتد به الجوع كما في قصص العجائز. «يا الله لا تتركني» قال في نفسه وهو يتراجع، وكان الذئب في نظره عبارة عن ظلّ أسود يتراجع.

تراجعا بضع خطوات ثم توقّفا معاً. هل سيهزمه؟ تساءل والليل يكتمل، ألمَّ به حزن عميق، أتى مِن تذكُّره أنه ليس به طاقة على مواجهة ذئب يقف الكون كله بصفّه. تهدّج صوته:

«أنا يتيم ومسكين»، التهبت دمعتان في عينيه: «الدنيا ضدي»، انزلقتا على خدّه: «حتى أنا ضدي».

«لحمي مرّ» صرخ بجنون، جاعلاً الذئب يشدّ على عضلاته كافة، ثم خفض صوته وأكمل باكياً يستجدي: «ابحث عن غيري»

صرخ مجدداً: «دعني»، نشَق أنفه وهمس برجاء: «ورأس أمي وأبي لحمي مرّ».

استدار الذئب قليلاً عائداً إلى الوراء، خمّن ذيبان أنه سيقوم بحركة التفاف وسيهجم عليه، قدَّر أن بينهما ما يزيد على عشر خطوات، فرصة الإصابة الجيدة ضعيفة، كما أن البكاء لن يجدي مع مخلوق لم تخلق به شفقة ولا يفهم البكاء. فكّر: حتى لو بلتُ على ثوبي فلن يقول لن آكل رجلاً يبول على ثوبه. وانتبه إلى أمرٍ لم ينتبه له سابقاً.. عندما بالَ على ثوبه تحت حميدان لم يكن خوفاً، كان محاولة للخلاص، كان بوله آخر سلاح يمتلكه جسده للنجاة.

أدار المقلاع بسرعة مفاجئة وأطلقه، فارتطم الحجر تحت يد الذئب، متعمّداً إرهابه وحسب. قفز الذئب بخفة مغيّراً موقعه، ثم اقترب ينظر إلى مكان سقوط الحجر، قليلاً ورفع رأسه باتجاه ذيبان، ثم عاد إلى الحجر يحرِّكه بيده ويتشمَّمه. فهم ذيبان بأن الذئب يقدّر الآن خطورة سلاحه ومدى الأذى الذي قد يصيبه منه، لكن ليس معه حجارة الآن، المقلاع الآن مجرد حبل.

لمّا رفع الذئب رأسه إليه، جعل ذيبان يمثّل كأنه يأخذ حجراً من الأرض ويضعه في المقلاع ويلوّح به عالياً.

غمسَ الليل المكان بظلمته، ظلَّ الذئب ساكناً متحجراً كأنه جماد، تراجع ذيبان إلى الوراء، خطوة إثر خطوة، والمقلاع يدور فارغاً، فتقدّم الذئب خطوة خطوة ثم خطوة، وزمجرة خافتة ولكن

صارمة تهرّ من حنجرته. فكّر ذيبان: نفد صبره، لم يعُد يأبه بالمقلاع، وهمس: «يا ويلي ويلاه» تعثّرت قدمه بإحدى الثندات الكبيرة، وعيناه مثبتتان على الذئب، كاد يسقط، فتحرك الذئب حركة سريعة إلى الأمام لينتهز الفرصة، غير أن ذيبان استدرك ثباته ولوّح بالمقلاع بشكلٍ أسرع كأنه على وشك الرمي، فتوقف الذئب كما لو أنه يتجنّب المخاطرة، توقى ذيبان الثندة عن يساره وقام يتراجع. أحسّ بأنه سينهار قريباً، فتوترُه لا يطاق، وهذه اللحظة العصيبة أكبر منه، أكبر من تجاربه في الحياة. . «الحياة». . بدت له هذه الكلمة مطابقة في معناها لكلمة الجَنّة التي سمع عنها من العجائز.

وشت سرعة الريح بقرب عاصفة رملية. . اشتدّت رفرفة طرف ثوبه. . زادت وتيرة رمشاته من ارتفاع الرمل إلى عينيه. . المقلاع يدور. . خطواته تتراجع. . الذئب أمامه، جائع، لا يبرح مكانه.

بدأ الظلام يحتشد حوله كعقارب سوداء تغطي بصره وتحاول النفاذ إلى صدره ليسلم لحمه للذئب، تطلع حوله. . بدا له الليل، لأول مرة، بشعاً وسافلاً، ليس كما وصفه في أحد أبيات قصيدة في أيامه الخوالي:

الليل وقت الشوق والحب يا عيد
قل للهنوف الليل قرب يجينا

كان إحساسه يقول له إن تلك الأيام حلم. . كذبة. . شيء قَصَّته عليه العجائز. نظر شماله. . كان كل شيء أسودَ، الأرض أصبحت قطعة أخرى من الليل. . وفجأة قال: «ما هذا؟». . بقعة على القاع أشدّ سواداً من سواد الأرض، ظنّه نبتة عرفج أول وهلة، فاقترب منها وهو يتراجع ومقلاعه يدور فوق رأسه، وبنظرة كادت تخرج منها عيناه، تأكد أنه. . «جحر»، جحر غائر على الناحية الأخرى من الثندة، كأنه أثر خفّ ناقة عملاقة، ألقى نظرة على الذئب الساكن أمامه، ثم عاد يتفقّد الجحر، ربما يكون لثعلب أو لابن آوى أو قد يكون جحر ضرمبول(*). قدّر أن فوهته تسع جسمه النحيل، مهما يكن الحيوان الذي في داخله فإنه لن يكون أخطر من ذئب تتمزق أحشاؤه جوعاً، أسقط زوّادته أمام الجحر، رأى الذئب يتقدم إليه، وبلمحة عين رمى المقلاع عليه ودسّ جسمه في الجحر.

وجده محفوراً بشكلٍ مائل بجانب كُثيب تراكم متماسكاً بصلابة حول الثندة من جَرّاء قبض سيقانها الطويلة على التربة المتحركة، يميل إلى الداخل ثم ينزلق، مثل فم رجل، سريعاً إلى القاع؛ حين لمس نهايته الرطبة بقدميه، ووجده خالياً، وبالكاد يكفي جسمه بكامله مكوّراً كما لو كان جنيناً في رحم، مدّ يده ليمسك الزوّادة، ولمّا سحبها، شعر بتوتر الأرض عند رأسه، فانسلت يده بالزوادة سريعاً، وما إن وصل بها إلى فوهة الجحر، حتى دخلت يدا الذئب معها إليه.

(*) غُرير العسل.

صرخ مرعوباً صرخة زادت هياج الذئب. كانت يدا الذئب تجُوسان في الداخل عن شيء تنشبان مخالبهما به، راحت يداه تتوقّيان يدَي الذئب، في ظلمة كاملة احتوت بصره في عمى مصمت، فانطلق صراخه ينقطع ويتصل في عدة أصوات، إلى أن زمجر الذئب زمجرة مهولة منشباً مخالبه بذراع ذيبان اليمنى، من نهاية الكوع تماماً.

زاد صراخ ذيبان ألماً وذعراً ورجاءً، وجعلت المخالب تغوص أكثر كلما حاول تخليص ذراعه من الذئب، إلى أن انزلقت بأربعة خطوط إلى منتصف الزند ثم توقفت.

حالَت الزوادة بينه وبين دخول رأس الذئب، علقت بينهما منحشرة في الفتحة، تاركة فم الذئب يبرم محاولاً - عند جبهته التي يضغط بها على الزوادة - الدخول. انتفضت يد الذئب الأخرى تجوس يميناً وشمالاً بحثاً عمّا تنشب مخالبها به.. دخل التراب الرطب فم ذيبان وعبّأ عينيه، شعر بالموت يبرم بفك الذئب ويلجُ شيئاً فشيئاً، قاوم شادّاً على عضلات رقبته، ومرتكزاً على قدميه، حتى شعر أنّ كلّ شيء فيه بائس ويتوجع. فكَّر: هذه علامات المَنيّة.

سحب يده بقوة فانزلقت المخالب الأربعة على جلد الزند إلى الكتف، صعقه ألمٌ لا يُطاق، تألم كما لم يتألم في حياته قط، أطلق تأوهات رهيبة وأصواتاً عديدة من منخريه وهو يتوسل: «اتركني، آآآي، اتركني.. ألعن أبوك اتركني يا ابن الكلب».

أحسّ بلزوجة الدم وحرارته تسيل على ساعده، وكانت المخالب قد وصلت إلى الكتف وتمكّنت من الثبات. ملأت أنفاسه وأنفاس الذئب الجحر، انقبضت رئتاه في صدره تطلبان الهواء.. الرطوبة خانقة والجحر ضيّق والذئب جائع.

قام الذئب يجرّ تارة ويُرخي تارة، تاركاً الألم يتضاعف في جسد ذيبان، انفجرت ذكريات ذيبان فزادته هلعاً، القصة التي سمعها قبل زمن، من إحدى العجائز، تقول إن المرء قبل موته يتذكر كامل حياته، أزاحها عن ذهنه مركزاً كامل إحساسه على الألم، حرارة ما اندلعت في ظهره، حرارة غريبة لم يشعر بها من قبل، أحسّ بأنه يموت الآن وعليه أن يفعل شيئاً ليُنقذ روحه ولو على سبيل المحاولة.

كان التصرف الذي تلا ذلك غريباً لدرجة أن ذيبان لم يصدّق أنه يفعله، إذ أمسك يد الذئب الأخرى، دون أن يعي ما يفعله، وأطبق عليها بأسنانه كما لو أنه يَعَضُّ على الحياة.

لم يكن عَضّاً، بل كان افتراساً لأنه كان ينوي تمزيق اليد شادّاً رأسه إلى الوراء يميناً وشمالاً كأنه يريد اقتطاع جزء منه، كأنها الطريقة الوحيدة لتهدئة ألمه. لم يغيّر الذئب من حدّة هجومه رغم أن زمجرته ارتخت قليلاً، أحسَّ ذيبان منها بأنه يشعر بالألم.

ظلّ رأسه يكشط جدران الجحر من الداخل وهو يلوي يد

الذئب ليمزقها، ومن الخارج كان يسمع صوت الريح مع صوت حرث رجلي الذئب وهما تنزلقان إلى الخلف على التراب.

استمر يبادل الذئب الألم إلى أن خنست قوته، وفتر الذئب.

* * *

سكنا لبرهة عن الحركة، كان الذئب خلالها هادئاً إلّا عن زمجرة متقطّعة، خمّن ذيبان أنه يستريح لفورة قادمة.

لا تزال شدة الوجع تتصاعد بكتفه، أحسّ بأنّ يده بُتِرت من الكتف وانقطعت إرادته في تحريك أصابعها، وبأن سيلان دمه لم يتوقف، ولن يتوقف حتى تنفد روحه.

توقف الذئب عن الزمجرة، بعد قليل، إلّا من لهاث تداخل معه صوت غامض لم يعرف ذيبان دلالته.

سمع الريح تشتد وتزمجر أيضاً.

ازدادت رطوبة الجحر حتى أصبحت دبقاً يلتصق بالجلد وتجهد تنفُّسُه؛ لم يكن يصله غير نفحات بسيطة من الهواء تأتي من فتحة صغيرة تفصل بين الزوادة وحافة الجحر، تقابلها نفخات ملتهبة من أنسام الذئب الحارة والكريهة. صدره سينفجر، لهث: «أختنق».

لم تنفكّ يد الذئب عن صرامة انغراسها العميق في كتفه، واستمرت أسنانه تعضّ يد الذئب، قزز شَعْرُ يدِ الذئب لسانه، ذاق

فيه طعماً غريباً، هو خليط حامض ومرّ وحلو، فكّر: هذا طَعْمُ الذئب.

جُنّ جنون الريح خارج الجحر، عاصفة رملية تنفض رداء الأرض، «هذا ما كان ينقصني».

انهال الرمل على وجهه، وتدافعت حباته إلى عينيه، خُيّل إليه، من غزارة التراب الذي تذرّى عليه، بأن الصحراء تريد أن تدخل معه الجحر لتخرجه للذئب.

كان فم الذئب لا يزال مندساً فوق رأسه، يحرق بلهب أنفاسه، التي تنمُّ عن جوع يضطرم وإصرار لن يبرد، صدر ذيبان.

مضى الظلام يسترسل دامساً في الجحر ويظلم أكثر فأكثر، حتى ليصدق ظنّ ذيبان بأنه في ظلمات ثلاث كما سمع مرة من إحدى العجائز أنها حدَثت مع أحد الرجال الطيبين؛ ابتلعه حوت ذات ليلة، وأصبح في ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت. هو الآن في ظلمة الليل، وظلمة العاصفة الرملية، وظلمة الجحر.

شعر بأنه يحلم وسيستيقظ عندما يبلغ الحلم ذروته من الرعب مثل كل مرة، وسيجد عرقه يرطّب فراشه، الآن سيستيقظ، الآن، همس في نفسه «استيقظ ذيبان، هيا، استيقظ»، وفكّر: لعلّ الرعب لم يبلغ ذروته حتى الآن.

آلمه فكيه، أحسَّ بأن فمه امتلأ بدم الذئب، وبأنّ طعمَ لعابه

الآن ليس إلّا مزيجاً من الرمل وطعم الذئب الحلو الحامض والمرّ، يتعيّن عليه ألّا يبتلعه، لا يدري.. قد يُصاب بداء الذئاب إذا نجا ويجوع ثم لا يُشبعه شيء أبداً إلى أن يموت جوعاً، تركه يسيل من زاوية فمه إلى حنكه وينقّط على صدر ثوبه.

«الموت يطاردني من كل جانب» قال في نفسه، بعد أن انتبه إلى أنّ احتمالات الموت كثرت من حوله «دم متعب يطاردني». وتنهّد مطلِقاً سيلاً من اللعاب المخلوط بالدم.

* * *

«كم من الوقت مرّ؟». سأل نفسه.

لم يغير الذئب من حاله، مستلقياً ربعه في فم الجحر، وثلاثة أرباعه خارجه، ناشباً مخالبه في كتف ذيبان.

اللحظة لا تزال مستمرة، تتمدَّد في داخله، تباعد بينه وبين نفسه، وتملأ الفراغ المتاح بينهما بالوهم. لا يبدو له أنه لبث أكثر من الوقت الذي ينفقه في تحضير دلة قهوة، وقت قصير جداً، لكنه في نفسه طويل، كأطول ما يكون الوقت.

«إلى متى سيستمر الوضع هكذا؟»، تساءل في نفسه بعدما شعر بتصلُّب عضلات رقبته وفمه، ورجّح أنهما سترتخيان بعد قليل وينفرج، شيئاً فشيئاً، فكُّه من الوهن.

الذئب كامن ومتحفّز كما أخبره لهاثه الملتهب، لا شيء يدلّ على أنه سيستسلم ويطلق كتفه. هل سينتظر الصباح وهو على هذه الحال؟ سيموت إذن.

«استمرار هذا الوجع هو الموت» قال في نفسه.

كم مرة رأى ذئباً؟ حاول أن يتذكر، ثلاثَ مرّاتٍ أو أربعاً؛ إحداها، وهي الأكثر قرباً كانت في بداية شبابه، لمّا جاءه شابان في مثل سنّه، يجرّان ذئباً مسلوخاً قتلاه، أحدهما كان يضع على كتفه فروة الذئب التي سلخاها، وسألاه عن أغنام كانت ترعى بالقرب منه، يريدان أن يُعطيا صاحبها جثة الذئب ويأخذا عنه نعجة يختارانها من قطيعه كما يجري العُرف، جزاءً على صنيعهما. رغم أنه كان ذئباً صغيراً لكنه بدا له شرساً ومتمكناً من النهش، لدرجة أنه استصعب أنّ مثل هذا يمكن قتله، فسألهما كيف نالا منه، أجاب أحدهما مستعرضاً رمحه «بهذا، انظر»، قَلَبَ الذئب وأشار إلى الجنب الأيمن من صدره حيث كان جرحٌ غائر ملوث بالدم ويتكاثف عليه التراب «طعنتُه من هنا». دار ذيبان حول جثة الذئب ولم يقترب منها، شيء ما منعه من الاقتراب، لم يكن الخوف، بل كان شيئاً كالخشية أو كالاحتراس، حيث تراءى له أن جثة الذئب طرية على نحوٍ لا يمكن معه أن تكون جثة ميتة. وقال لهما: «ماذا لو كان يعدّ كميناً لكما، ويريد أن تبتعدا به في الخلاء فينهض ويلتهم أحدكما؟ الذئاب ماكرة». قرصه أحدهما: «هل تخاف من ذئب ميت؟»، صمت ذيبان ينظر لهما، ثم سأله ببلاهة: «وما أدراك أنه ميت؟»، صفعته قهقهتهما، فقام الشاب الآخر وأمسك برأس الذئب فاتحاً فكّيه وقلّد عواءه ضاحكاً: «أووووو». رأى ذيبان أنيابه التي يتغنّى بصلابتها الشعراء، «أوووووووو» كرّر الشاب عواءه مستهزئاً، ثم قال لصاحبه «كيف

فاتنا أنّ الذئب تركنا نقتله ونسلخ فروته ليخدعنا ويأكلنا؟»، ضحكا فضحك معهما شاعراً بالحرج، وحاول من تحسين الوضع «كنت أمزح يا رجل.. أمزح»، فسألهما «ماذا تريدان بفروته؟»، أجابه الذي يضعها على كتفه: «نبيعها للعجائز، فروة الذئب تُبعد الجن عن المكان الذي تعلّق به»، ومضيا إلى صاحب الأغنام يجرّان ذئبهما على الأرض، وعندما آب ذيبان إلى مضارب الخيام قبل غروب الشمس ووجد الأولاد يلعبون على جثة الذئب المسلوخ، شعر برداءة موقفه، إذ تبين له أن شاباً في مثل سنّه لم يكن لائقاً به كلّ هذا الحذر من جثة ذئب ميت ومسلوخ، وها هم الصغار أمامه يلعبون عليها.

أحس بأنه لا بد من قطع يده إذا استلزم الأمر، على هذه الحال سيموت أكثر من مرة، بعد قليل ستكثر طرق الموت، كالاختناق، أو التهاب يده، أو قد تضعف قواه ويسهل على الذئب إخراجه، وعندها قد لا يكون الموت هو النهاية الأسوأ. فكّر: «إذا كان ما من بدٍّ من الموت فلأَمُتْ بالطريقة الأسهل، والتي لا أرى نفسي بها تزهق أمام عيني دون أن أُقدِم على فعل ينتزعها من فم الهلاك، لن يكون آخر شيء أفعله هو خذلان نفسي».

قوةٌ ما اندفعت في أوصاله على شكل رعدة نفضته من الوهن وأشعلت همّته، ودون أن يفكّر بماذا سيحدث، ضغط بيده على الزوّادة، دافعاً رأس الذئب، وجارّاً كتفه من مخالبه، جرّها بقوة كأنها كتف لا تخصّه، اندلع الذئب ودفع بجسده إلى الجحر، شعر

ذيبان بأنها اللحظة الحاسمة التي تفصل مصيرين. . إمّا أن يعيش الآن وإمّا أن يموت الآن.

فكّ أسنانه عن يَدِ الذئب، وسحب كتفه السحبة الأخيرة، كما لو أنه يسحبها من الموت ويُعيدها إلى الحياة، خرجَت مخالب الذئب، شعر بأنّ جزءاً من لحمه نزع معها، وفي الظلام جاهد وراء يدَي الذئب حتى استطاع أن يثبتهما على جدار الجحر، ولمّا تأكد من أنه أحكم تثبيتهما، ركز قدميه في قاع الجحر، وشدَّ على ظهره رافعاً رقبته وضاغطاً بالزوادة على رأس الذئب، ثم بحركة واحدة شدَّ على سائر عضلاته ودفع الذئب للخارج، ثم سحب طرف الزوادة الآخر إلى الأسفل مغلقاً الجُحر بالكامل.

قاوم الذئب مقاومة شرسة كانت ستجدي نفعاً لولا أنّ طبيعة الأرض التي هو عليها لم تسعفه ليثبت قدميه. سمع ذيبان حفر قدمي الذئب تنزلقان على الأرض مكانهما إلى الخلف.

احتمى بالزوادة على رأسه، ضاغطاً أحد أطرافها بين قفاه وجدار الجحر وممسكاً الطرف الآخر بيده اليسرى، وقد ترك فُرجةً تسمح بدخول الهواء.

هاجت مخالب الذئب وهي تخربش في قحف رأسه محاولة تمزيق الزوادة، سمع صوت لهاثه محموماً وبصحبته ريح تعوي عند أذنيه وتبصق عليه التراب من فرجة التهوية، «لن تستطيع وأنا ذيبان ابن هياب فارس الرجال» صرخ، بعدما تأكد له تحصُّنه، «اذهب. . انقلع وراءك».

كأنَّ الذئب فهم عليه إذ توقفت الخربشة فوراً وملأت العاصفة المكان بينهما.

أوجس ذيبان خيفة من هذا الفعل، متسائلاً عن الحيلة التي سيمكرها الذئب بعد ذلك. كان يشعر به واقفاً، أمام الجحر، يناكف هواء العاصفة؛ سأل نفسه: «هل سينقض الآن؟»، فأتاه صوت لم يتأكد من حقيقته، صوت يشبه احتكاك معدنين يقول: «سأعود».

وبعد ذلك سمع صوت ارتطام الريح بجسد الذئب يمضي مبتعداً.

التقط بأنفاسه بعض الهواء يُعيد الاتساع لصدره بعدما أطبقت عليه أنفاسه المستهلكة وأبخرة لهاث الذئب. أحسَّ أن للهواء معنى آخر غير التنفس أو نقل الروائح، للهواء قدرة على إراحة الرأس من الوجع وإزاحة التعب عن الجسد كما يشعر الآن، أم أن وجع الرأس وتعب الجسد سببهما استنشاق الهواء الفاسد، لا يهم، ما يهم الآن هو الهواء، استنشاق الهواء.

«آآآه» تأوّه مرخياً رأسه على جدار الجحر، أحزنه أنّ كل ما يريده من الحياة الآن هو الهواء.

كلما ضاقت به السبل أصبحت الأشياء التي لم تكن تعني له شيئاً غاية تستحق أن يسعى لها.

سعل.. عطس.. تمخض.. بصق على فخذيه.. أصدر صدره أزيزاً.

نفذ الغبار إلى رئتيه، يعرف هذا الأزيز الذي يشبه فحيح وَرَل(*) متسلط، يضيق معه النَفَسْ بسائل لزج له لون عصارة عشبة فاسدة يخرج إلى حلقه مع السعال القوي. حدثت معه هذه الحالة أكثر من مرة في صباه، لا يجعل من التنفس عملية شاقة وحسب، بل شاقة ومؤلمة، الغبار هو السبب في كلّ مرة.

استحال ألم كتفه إلى خدر لذيذ، فقط نبض قلبه يكاد يخرج من جلده، لا بد أنه بدأ يلتهب، فكّر، وتحسَّس خطوط المخالب، ما إن وضع أطراف أصابعه عليها حتى شعر بلسعة الألم، وجدها منتفخة وحارّة، ليته يستطيع أن يرى كيف هي ليطمئن، أصبح الخوف الآن ظلاماً رابعاً في صدره، إذا لم يعالج الجروح فسيموت بكل تأكيد، سيشمّ الجرح الغبار ويسهل ولوج الموت إلى دمه.

(*) حيوان بري من جنس السحالي.

«لن أموت»، همس، بعد أن هجس بأنّ نهايته قد تنجم أيضاً عن الأزيز الذي بدأ يموج في رئته، مخمّناً أنه قد يطبق على صدره ويمنع تنفسه، أضاف مصرّاً بعد لهاث سريع: «وقبر أمي.. لن أموت.. اليوم».

شعر بأنّ ضيق المكان يضيف إلى ضيق صدره سبباً آخر للضيق، المكان يعصره ويحشر أطرافه ببعضها. كل ما فيه يئنُّ، ويمقتُ حياته: «لن أخرج قبل أن تشرق الشمس».

انسعرت الريح خارج الجحر، تعوي وتدفنه بالتراب. ضيّق الفتحة ليخفف من غزارة الرمل المندفع، واسترخى برأسه على جدار الجحر، مرخياً بعد ذلك سائر جسده ما عدا مثانته التي امتلأت وشعر بأنها ستنفجر؛ شدّ عليها أعصابه.

لن يبول على نفسه مرة أخرى.

تكاثف الظلام وثقل، بَحْلَقَ في السوداء الأصم وأمعن فيه طويلاً، احتشدت أمام عينيه صورُ كل مَن عرفهم وراحت تنبثق منها كلّ وجوه الذين رآهم طيلة عمره، متراصين بذاكرته في صف واحد.. تأملهم محاولاً العثور في ملامحهم على تعبير واحد يعينه على فهم سبب كلّ هذه الكراهية.. لماذا ليس محبوباً رغم أنه لم يجترح في حق أحدهم خطأ.. بدت له أشكالهم ظلامية أكثر من الظلام.. وفي العتمة العمياء اتسعت صحراء واسعة في خياله، استحضر كل الوجوه التي تتراءى له.. وزّعهم فيها.. أخفى عنهم كلّ المعالم.. تاهوا.. أطلق عليهم ذئاباً جائعة.. ركضوا

هلوعين أمام عينيه.. حشرهم في جحور ضيقة.. شعر بارتياح طفيف وهو يتصور وجه حميدان مرعوباً ويبكي ويبول على نفسه في الجحر. تخيَّل امرأة خاله مندسة وتستنجد بالخنافس.. كلهم مرعوبون ويرتعدون.. كلهم.. تُخرجهم الذئاب من الجحر وتنهشهم.. أجل.. يجب أن تنهشهم، لأنهم لا يستحقون ميتة مريحة.. يجب أن يتألموا كما تألم، وأن يمرضوا كما مرض، وأن يتيهوا مثلما تسببوا له، وأن... «آآآه». انتبه إلى أنه ذهب بعيداً وراء خياله إلى حدّ أنه أحسّ باستعداد لأن يجلس طيلة حياته في الجحر ليتلذَّذ في تعذيبهم واحداً واحداً في وقت يجب أن ينتبه ويركز فيه على وضعه الحالي.. «عيال الكلب».

ذهب يبحث في ذاكرته.. لا يذكر أنه سمع من العجائز عن قصة رجل اختبأ بجحر من ذئب، يريد أن يعرف كيف نجا، وهل هنالك أمل لينجو، غالباً تتشابه القصص التي يروينها في نهاياتها، إذ يفوز البطل وتنتهي معضلته بسلام، لكنها قصص للأُنس، حدثت مع أشخاص أشدّ قوة منه وأكثر إقداماً، لن ينفعه استذكارها الآن هنا، لن تزيده إلّا إقراراً بضعفه وقلة حيلته.

مرَّت غالية في باله، كلّ ما هو فيه من سوء بسببها، «ملعونة» شتمها في نفسه، وتمثّلتها مخيلته في ذات لقاء لهما.

عندما سألته معاتبة وهي تدنو منه بغنج:

- «أين وعدك؟».
- «ألن تصبّحي بالخير أولاً؟».
- «لا صباح خير قبل أن أسمع القصيدة التي تصفني».

- «اجلسي».

- «لن أجلس قبل أن أسمع أول بيت».

- «الصدق.. لم يأتني شيء، كأن شيئاً يحُول بيني وبين شيطاني».

جلست، وقالت ماطّة شفتيها:

- «شيطانك هذا ملعون».

- «لا ليس ملعوناً، قد أكون أنا الملعون».

- «كلاكما ملعون».

- «حسناً كما تريدين».

صمتا قليلاً، شعر ذيبان بأنّ الصمت يزيد التوتر:

- «صدقيني غالية، ليس كلما أردتُ أن أقول شعراً قلتُه، المسألة محيّرة، كأن رأسي أثناء اعتمال الأبيات ليس رأسي، لا أتحكم في ذهني، بل هناك من يغزل فيه الكلمات وينسج الأبيات ويطرّزها على غير تدخّل مني، هل تفهمين ما أعني؟ لو كان الأمر بيدي لقلت فيك شعراً منذ خمسة أيام».

- «ثمانية أيام» قالت مصحِّحة.

- «حسناً ثمانية، لكنه سيأتي الليلة، أشعر بأنه سيأتي الليلة، غداً سأسمعك قصيدة تذهب بها الركبان».

- «كما قلت قبل يومين: سيأتي الليلة.. ولم يأتك».

- «الآن أشعر بأنه سيأتي بصدق أكثر».

صمتا، وقد انفرد وجهها ورجعت بسمتها:

- «هل هناك طريقة تجعله يأتي إليك؟».

- «لا، لكنه في حالات الذهول، أعني في أشدّ حالات الذهول، يأتي راكضاً».

- «كيف؟».

- «إذا رأيتُ شيئاً جميلاً، يفوق جمالُه ما رأيت في حياتي، مثل أول مرة رأيتك فيها».

- «عندها لم تقل شيئاً غير قصيدة يا بنت يا مياسة».

- «صحيح، كانت حاضرة كما هي في رأسي، كأن أبياتها نفثت في ذهني فجأة».

- «أشدّ حالات الذهول.. هاه؟».

- «نعم».

- «حسناً، اعزِف لي قصيدة الشوق».

أمسك الربابة، وأنّ بقوسها على وترها، وشدا لها.

كانت تنظر إليه نظرةً شعرَ أن فيها بريقَ شيطانة خجولة، كأنها تفكّر بأمر لم يفكّر به أحد من قبل، فرآها أكثر فتنة عن كلّ مرة.

بعد أن رفع قوسه عن ربابته، بدت له نظرتُها مكتملة الشيطنة.

- «ما بكِ.. بماذا تفكرين؟».

- «عند بداية زوال الشمس أريدك أن تأتيني هناك»، أشارت إلى طرف ناءٍ من أطراف الغدير: «احرص على ألّا يراك أحد، ستجدني واقفة، هناك عند تلك الشجرة»، أشارت إلى شجرة بعيدة تقف على كثيب رملي مرتفع: «دون أن يراك أحد، هل فهمت؟».

- «نعم فهمت، لكن لماذا كل هذا؟».

- «سأجعل شيطانك يلهث».

وبّخ نفسه: «هل هذا وقت يصلح لاستدعائها في المخيلة!».

تعجّب من ذكراها التي تبرز فجأة في أشدّ اللحظات قتامة، هل يتقوّى بها، أم أنه يعزّي نفسه بصورتها، أم لأنها السبب في هذا كله يتذكرها مقهوراً ليلوم حظه؟

الذي يعلمه أنها جميلة جداً، ورؤية الجمال هو الشيء الوحيد الذي قد يساعد روحه في الوقوف على قدميها من جديد.

انهدَّ جسمه، ثقُل لدرجة أنه لم يعُد به طاقة على نفسه. فرك عينيه، كانت أنفاسه لا تزال صعبة، متحشرجة، وأخذ منخريه يسيلان بمخاط غزير.. يده اليمنى تكاد تنفجر.. جسده محشور ومرهق.. مثانته تزداد انتفاخاً، الريح تركض مسعورة في رأسه وتثير غبار الأفكار المجنونة التي كانت راكدة.. أحسّ بدوار من هذا كله: «كلّ شيء ملعون، كل شيء ملعون».

استسلم لإنهاكه مفكراً: سأنام.. قليلاً، ولو إغماضة عين.. إغماضة عين فقط.. وليفعل الذئب ما يشاء.

وشعر بالليل ينسكب في عينيه.

فزّ مرتعشاً تتخبط يداه في جدار الجحر، شهق وزفر: «حلم حلم حلم». سعل سعالاً ناشفاً؛ آلمه حلقُه، بلع ريقه، سعل مرة أخرى: «حلم.. كان حلماً»، وجد نفسه منغمساً في عرقٍ غزير حارّ ودبِق. وكما لو كان يتنفس من ثقب إبرة راح يجرّ خيط الهواء المحمَّل بالغبار إلى صدره بحركة تُجاري خفقان قلبه.

لم تتوقف الريح عن العصف في الخارج، خفَّ نزَقُها شيئاً ما، رجّح معه أنه لن يطول الوقت حتى تسكن.

فكّر: «لا بد أن وجهي ازرقّ خالياً من الدم؛ كما توحي برودته». تحسَّس صدره من الخارج، وجد طبقة كثيفة من التراب، أزالها بيده وتشاءم: «سأدفن وأنا حيّ».

عضلات فخذيه متصلبة وتؤلمه كأنها حبال ستتمزق من الشدّ، تضاعف حجم مثانته مرتين، أراح رأسه مجدداً على جدار الجحر، محاولاً إرخاء سائر جسده لعله يفكّ عن عضلاته تصلبها، وحاول أن يفرد ساقيه ليخفف الضغط، لكن ضيق الجحر

أبى إلّا الإطباق، عصره تشاؤم ثقيل بأنّ وضعية الجنين التي هو عليها ليست إلا فأل سوء ينبئ بالمفارقة الهزيلة في أن تكون كيفية موته في الجحر كما كيفية حياته في بطن أمه.

تألّم «آآآه»، تمنّى لو يخرج صدره فقط من الجحر مقدّراً أن هذا كافٍ ليتمدد ويتخلص من الألم. فكّر بالذئب، إذا أخرج صدره فلن يتوانى الملعون عن الظفر به.

أزاح مؤخرته ببطء إلى الجنب آخذاً بعنايته مثانته التي قد تنفجر عند أي حركة غير متأنية، وهمس متألماً، ليقنع نفسه: «آآآخ.. الآن لا بأس».

فكر بالحلم الذي رآه قبل قليل، محاولاً فك رموزه وإشاراته التي لا شك أنها تدل على شيء؛ «الأحلام تخبر عمّا ستُقْبِل به أيام المرء». كما سمع من العجائز أنها ألغاز يجب أن يفكّها العارفون بإشارات المنامات ودلالاتها، لأنها كلام الملائكة.

لكن هذا الحلم بدا له من الغرابة بمكان يصعب معه التفسير، فما دلالة ذئب يقول الشعر؟

راح يستعيد القصيدة التي رأى ذئباً في المنام يجرها(*) على الربابة، ويستعيد معها الحلم كله؛ إذ رأى ذئباً جالساً كما يجلس الرجل، بيده ربابة، تشبه ربابته، لكنها حمراء كلون الدم، بدا وجه الذئب مألوفاً لدرجة أنه لم يستغرب أثناء الحلم جلوسه على

(*) يعزفها.

هذه الصفة الآدمية، وكان الوقت صباحاً ساكناً يلفّه الصمت، صمت اطمئنان زادته نظرات الذئب المسالمة سلاماً لم يشعر له بمثيل. لم يكن يظهر على الذئب أنه يراه، كان منكبّاً على العزف بكلّ جوارحه كما يفعل هو عندما يعزف، عزف الذئب على الربابة لحناً يفضله ذيبان، وكانت ملامح وجه الذئب منسجمة مع شجن اللحن وهو يشدو:

سقت القدم بفجوج ربي وسبحان
ربي يسوق الرزق يمّي برجليه
كم ذيب من لحم الرياجيل شبعان
أصبح صباحاته وأمسى لياليه
الذيب يا ذيبان لا جاك جوعان
عشّه ترى ابن آدم لزوم يعشيه

توقف الذئب عن العزف عند البيت الثالث فاغراً فاه، شاهد ذيبان رأسه داخل فم الذئب ساكناً ليس بالميت ولا بالحي، ثم لفظه الذئب على الربابة.

سعل، سعل بقوة شعر معها بأنّ رئته تمزّقت، خرج إلى حلقه سائل لزج متكاثف جاء صاعداً من صدره، ابتلعه، شعر مع خروجه ببعض التحسن، كما لو أن ثقب الإبرة التي يتنفس منها اتّسع قيد ثقب آخر.

تساءل: «كم نمت؟»، وقال في نفسه: «يبدو أنني لم أنم،

كانت غفوة ملعونة، تنبأ له من حلم، ذئب يجرّ على الربابة، ثم يبصق رأسي، أي حلم ملعون هذا؟».

أزاح طرف الزوادة ليلقي نظرة، انثال عليه رمل غزير كان متراكماً فوقها، فرك عينيه ومسحه عن وجهه ورجع ينظر، راحت هبّات الريح القوية تملأ عينيه بالتراب، سرّع إيقاع رمشه، فرك عينيه ثانية، لم يستطع رؤية شيء، الظلام فقط، إذا كان الظلام شيئاً فهو الشيء الوحيد الذي يراه الآن، ملتفّاً، محيطاً، ممتداً.

شرد ذهنه في الظلام تاركاً بصره يتيه من فم الجحر إلى أكثر الأشياء لا شيئية، إلى الظلام، مكابداً وخزات ذرات الرمل في عينيه، بدا له العالم عماءً محضاً، خاوياً لا شيء فيه، وتخيّل، بوحي من الغياب التام لكلّ شيء أمامه في ظلام ماثل مهيمن، أنه ميت الآن، ما الأذى الذي سيلحقه؟ أو ما الذي سيتغير عليه؟ لا شيء، تماماً كالظلام، إنه ليس موجوداً إذ لا يرى شيئاً موجوداً، فقط شعوره هو الذي يبقيه متصلاً في الحياة، شعوره بأنه حي، شعور في باطنه أذى حقيقي، حيث هو الشيء الذي يجعل إحساسه يستجيب للأذى ككلّ الأحياء، أما الأموات.. فالأموات لا يتألمون، بعد الموت يذهب الرجال إلى الله، والله يعرف لكلّ رجل قدْره، يُنزِل الرجال منازلهم، يُكرم الكريم في الجنة، الله كريم أيضاً ويحب الكرماء، ويرفع قدر الأصيل أكثر ممّا هو عليه، ويعطي الشجاع قلباً من ذهب، أما البخيل والجبان فلا ينظر لهما، ولا يقربان الجنة. «أنا كريم أيضاً ولست جباناً» حدّث نفسه: «الله يعرف أنني أريد السلامة فقط، يعرف أنني لم أقصد قتل متعب، ومع هذا سأطلب عفوه، وأدخل الجنة مع الكرماء».

أغراه الظلام، فترك أفكاره تجوب في حلكته دون توجيه.. أليس الموت ظلاماً؟ ألا يشبه الموت حاله قبل أن يولد؟ أين كان قبل أن يتزوج أبواه؟ في جحر.. في ظلام.. ظلام لا يَذكُر منه شيئاً لأن الظلام كما يراه الآن شيء ليس شيئاً حتى يُذكَر؛ توقف عند استنتاج (شيء ليس شيئاً). وفكّر به: «نعم، بل إن الظلام هو نواة لكل شيء، لأن كل شيء أراه في أساسه ليس شيئاً، حتى يأتي النور ويعطي لكلّ شيء شكلاً مختلفاً ومعنى مغايراً يخصه.. النور هو الشيء الوحيد الذي يجعل من الأشياء أشياء، من دون النور كل شيء ليس شيئاً».

بدأ جنون العاصفة يهدأ، فكّر: «سيعود الجو إلى رشده بعد قليل».

أغمض عينيه، تخيّل الغدير، الغدير كلّ ما يريد أن يتذكره، نسيمه العليل، فتياته الرائقات، اللاتي تفصح الدنيا عن جمالها بضحكاتهن الغنجاء. تلألأت صفحة ذهنه بذكرياته الجميلة هناك، أحس بأن امتثال الذكريات الجميلة يساعده قليلاً في احتمال الصعاب.

ارتمى وجه غالية في ذهنه واضحاً كأنه يراها بعينه الآن، واستذكر عندما ذهب للغدير بعد الزوال، على موعدها، كانت شمس الظهر تدفئ الجو، وكانت العصافير آوية إلى أعشاشها. شعر بالحر رغم أن الهواء خفيف وبرودته منعشة، مشى تحت وهج الشمس وهو كاشف رأسه ليلطف الهواء مزاجه، ناقضاً

جدائله ليسمح للنسيم بملامسة فروة رأسه التي سرعان ما تعرق. كان الفضول يستعجل الزوال في صدره، فانتبه، عندما بلغ الغدير، إلى أنّ فترة الضحى بعيدة اليوم على غير عادتها عن فترة الظهر. حدّث نفسه: «مرّ وقت طويل منذ تواعدنا».

كان يفكّر طوال الوقت بما تريده غالية منه بهذا الطلب الغريب، أن يلقاها هذه الفترة بالذات، شعر بأنه لم يعرفها تمام المعرفة ليتنبأ بمسار تفكيرها وتخمين ماذا تريد، مرّت خمسة شهور حتى الآن على أول حديث دار بينهما، التقيا بعدها مرات كثيرة وارفة، لقاءات يركض الوقت بها وينهيها بسرعة، خمسة شهور ليست كافية لفهم المرأة، بل وليست الحياة كلها كافية لفهمها، وفي تصوره أنّ المرأة من تلك الأشياء التي إن فهمها يبطل سحرها، سحر جمال غالية في عينه يكمن أيضاً في تصرفاتها التي لا يمكن التنبؤ بها، كما فعلت عندما قال إنه يحبها، أو كما فاجأته بسؤالها المحرج في أول لقاء: «أصحيح أنك خصيّ كما يقولون؟».

حدّث نفسه: «أيمكن أن تريدني..»، توقّف، هز رأسه: «لا لا» مبعداً عنه تلك الفكرة، وتابع مسيره: «هي عفيفة لا يمكن أن تفرّط في شرفها.. إذن ماذا تريد؟».

من بين كلّ التخمينات التي عقدها ذهنه ونقضها صمد تخمين واحد: «ربما ستقول إنها تحبني».

وجد الغدير نائماً في قيلولة، وضع كفه على جبينه ليظلّل عينيه ويرى جيداً، ومن البعيد، عند السدرة، وجدَها تقف ومعها

فتاة أخرى، أشارت له، ما إن سار باتجاهها حتى اختفت وراء الكثيب، «هل تلعب معي؟» تساءل.

وفكّر وهو يمضي قدُماً: «الآن سأعرف ما تريد».

التفت صوب مكان جلوس الفتيات المعتاد فلم يجد أحداً، من الطبيعي أن يذهبن إلى أهلهن في الظهر، وراح يقترب من الشجرة بخطى عَجِلَة.

صعد الكثيب، فظهر له الجزء العميق من الغدير، حيث وقفت الفتاة الأخرى، رافعة ثوبها إلى ساقيها عند بداية العمق، وتُمسك بيدها ثياباً، وفي منتصفه، في المكان الذي تغوص فيه القاع، كان رأس غالية هو الجزء الوحيد الظاهر من جسدها من الماء.

«ماذا تفعلين؟» سألها مضطرباً.

«أستحم» قالت ونظرت إلى رفيقتها وضحكتا معاً.

«سآتي عندما تنتهيان».

«تعال» نادته قبل أن يستدير «ألا تريد شيطانك؟».

«وما دخل الشيطان؟».

«ما دخله!» قالت وهي تمشي صوبه، ومع كلّ خطوة تخطوها كان يخرج من الماء جزء من جسدها.

احتبس الهواء في صدره وهو ينظر إليها تخرج من الماء عارية، أرهقه ما يرى، جلس على ركبتيه على رأس الكثيب فانزلق منحدراً على هيئة جلوسه ينظر إلى جسدها وهو يرتوي من أشعة الشمس، أبيض مشعّاً وكأن مفاتنها تقطر ذبالات شموع.

اقتربت منه مسافة عشر خطوات، انتبه إلى بريق خنجر في يدها اليمنى.

قالت مقتدرة تلوّح له بالخنجر: «إذا اقتربت أضعه في بطنك».

طوال السنين التي قضى فصول الربيع فيها على الغدير لم يرَ جسد امرأة قط، على أن عادة الفتيات أن يستحممن هنا، لكنه لم يفكر قط في اختلاس النظر إلى أجسادهن العارية كما كان يفعل البعض من أقرانه.

استيقظ شيئه ناعساً، ثم باغته ذلك الوجع الذي يطعنه في خصيتيه كلما استيقظ ليعاود نومه الدائم. تأوّه وهو يمسكه، راح يملأ جسدها بنظرة مَنْ يرى الحياة في أجمل مظاهرها، إلى السرور في أفضل حالاته، إلى الجمال في أكمل صورة يمكن أن يوجد بها، إلى بَهجَتَي النفس في صدرها، إلى انحناءات الفتنة على خصرها، إلى انزلاق قطرات الماء اللامعة على.. إلى.. شهق: «يا ربي رباه».

«كيف أنت الآن؟» قالت وهي تعصر شعرها وتضعه فوق كتفها الأيسر وتتركه متهدلاً على صدرها. «كيف أنت الآن؟» أعادت. لم يُجِب، شعر بأنه إذا نطق سينتهي انحياز الدنيا الذي أمامه.

«طيب» قالت ضاحكة، «ما رأيك الآن؟»، ودارت حول نفسها دورة كاملة، داخ ذيبان معها ولفّ رأسه السماء وهو ينظر كيف أن المرأة مخلوق قوي ومتمكن ويستحلُّ هزيمتَه.

«غالية» نطق بنبرة مبحوحة.

«نعم» قالت بصوت مستعرض.

«أنتِ» صمت قليلاً يتطلع إليها كأنه يريد أن يصد سهماً موجهاً إليه: «أنت أكثر سحراً من حصان يطير».

قفز إلى الوراء، وركض عائداً من حيث جاء، وفي رأسه أصداء أجراس مجتمعة، ترنّ في عظم جمجمته، ومن بين تلك الأصوات، سمع صوت شيطان الشعر، الذي يتمثل دائماً بصوته، يقول:

تـراك بـيـضـا ونـور الـشـمـس
مـا جـابـك إلا عـلـى طـاريـك
ساعة غمستي الغدير بغمس
زيـنـك تـوضـا الـغـديـر...

«آآآآه» أعاده وخْزُ جرحه إلى الجحر: «ألعن أبو غالية، وأبو الساعة التي رأيتها فيها».

هل كان يحبها؟ سأل نفسه، في الحقيقة لا يعرف، الذي يشعر به كلما رآها هي تلك الرغبة القوية بامتلاكها وتغطيتها عن أعين الناس حتى تكون خالصة لعينه، إن كان هذا هو الحب فهو أحبّها حباً لم يحبّه أحداً من قبلها، وإن كان ليس حباً فالحب أمر جلل لا يستطيع المرء معه الاحتفاظ بعقله.

وهل يكرهها الآن؟.. شعر بأنه سيُجيب بـ «لا»، فتوقف عن التفكير، متحسِّساً جرحه.

سأل نفسه عن الذئب: «أين هو؟»، وخمّن موسوساً: متربِّص

بسكون فوق رأسي، يوهمني أنه ذهب، حتى أتوهّم الأمان وأخرج رأسي فيقضمه. وهمس: «ملعون فطن». شعر بأنّ الذئب فوقه ازداد ضعف حجمه، وتضخم فكُّه وبرزت أنيابه حادة وقاطعة.

دخل في نوبة سعال انتهت بخروج السائل اللزج الكثيف، بصقه هذه المرة على فخذه. تألّم من ثقلٍ هائلٍ يضغط على صدره، يشبه إلى حدٍّ كبير الثقل الذي ضغطه عندما بال على ثوبه قبل يومين، وقتها لم يكن في جحر، بل كان العالم مفتوحاً أمامه على مدّ النظر، استغرب تشابه الشعورين، كأنهما من مصدر واحد، وتمتم: «الدنيا أيضاً جحر.. لكنها جحر كبير».

راح يستمع إلى تنغيم الريح فوقه، تأوّهات مختلطة بأنّات مجنونة ومتوجّعة، كبكاء امرأة خاله ابن باتل يوم فقدت ابنها الأول. أرهف السمع.. هنالك عزف خفي في هذه الأصوات كلها، طبيعي.. منساب.. لا يسير على إيقاع معين، أَنْعَمَ في الإنصات حتى أحسّ، بوحي من شعوره المتفاقم بالوحدة، بأنه اقترب من نفسه كثيراً، إلى حدّ لم يسبق له أن اقترب منها، شعر بأنه أزال رواقاً في داخله كان يفصله عن شيء ما، شيء خُلِق معه منذ خُلِق، انفتحت معه جهة مسكونة بشيء غيره، هيمن عليه سكون مسالم، اندمجت كلّ الأصوات في الخارج مع صوت نبضه، مع الإيقاع الداخلي لتدفُّق دمه، وأحسّ بشيء آخر داخله، كيان آخر غيره، كيان يملكه ولا يمتُّ له بصلة، أحدٌ وليس بأحد، لا يعرف كيف يفسّر هذا الشعور، شعر بهذا الـ«أحد وليس بأحد» واضحاً معه في الجحر، بحيث لو سأله: من أنت؟ فلربما أجاب..

ارتعدت قدمه، وخمّن: «إنه شيطان الشعر». لمس حضوره معه وفيه، خفيٌّ ولكنه يقينيٌّ. راح يشكك: «لا يمكن أن يكون شيطان الشعر قابعاً في داخلي، هو يأتيني من مكان لا أعلمه». اندفعت برأسه فكرة مجنونة، كما لو كانت من نفث شيطان الشعر نفسه: «ربما يكون هو الشيء الذي أشير له بـ «أنا». . وربما ليس هناك شيطان». . ارتطم تفكيره بشيء، وكما لو أنه اخترق جداراً صلباً وتعثّر ثم مضى يعرج متفكراً: «العالم، قد يكون العالم ليس حقيقياً، مثل الحلم، في الحلم أيضاً أتألم وأجوع وأعطش وأخاف، في الحلم ألوان وصحراء وسماء، وكذلك مطر وإبل وأغنام، وحميدان أيضاً، حميدان وخالي سلطان رأيتهما في الحلم، ما الذي يؤكد أن الحلم واليقظة شيئان مختلفان؟. . لماذا لا تكون الحياة حلماً والموت هو اليقظة التي تقطعه».

«آآآه» تأوّه مزيحاً عن رأسه جنون أفكاره، وقال في نفسه: «أنا أهذي، جسدي ملتهب، لا بد أن الحرارة بلغت رأسي».

نشق أنفه، وعاد لما رآه في الحلم محاولاً فكّ إشاراته. . ذئب شاعر. . ربابة حمراء. . عزف وشدو. . ثلاثة أبيات على وزن المسحوب، الوزن الذي يطرب له، تُمَجِّد بجنس الذئاب وتَفَوُّقِها على الرجال! ثم. . رأسه مبصوقاً!

«ما هذه الغرابة؟» تساءل، وداهمته حيرة لِما رمته هذه الرموز في ذهنه.

على أنه شاعر، والشاعر - كما قالت العجائز - أقدر مَن يفكّ ألغاز الأحلام، إلّا أنه يئس لصعوبة سبر غوره.

قفز جوعه فجأة، منتزعاً ذهنه من الحلم، تفقَّد جانب الزوادة فوق رأسه، وجد أن الجيب على الوجه الآخر خارج الجحر، «هذا إذا وجدتُ بها شيئاً» قال واضعاً في حسبانه الركض الذي ركضه والقفزات التي خضّته والانعطافات التي كادت تقذف به طريحاً لولا تماسكه، تمنّى في قرارة نفسه ألا يكون قد خرج منها شيء.

حاول إدخال الزوادة معه في الجحر، لكنها لم تكن لتدخل وهي بهذا الحجم الكبير، حاول مجدداً منكِّساً رأسه، بيد أن الجحر لم يسمح بدخول شيء غيره. فكّر في حيلة يستطيع بها الوصول إلى جيب الزوادة دون أن يعرِّض يده للخطر، إخراجها الآن مغامرة خطرة قد تعرِّض حياته للموت، على أقل تقدير سينهش الذئب أصابعه؛ ما إن خطر له الذئب حتى شعر به على نحو يقيني متحفزاً فوقه يلعق أنيابه، ينتظر خروج أي جزء منه.

«سنرى» تمتم، مقرراً أن يحتمل الجوع والتصلب الموجع لعضلات فخذيه، واحتباس مثانته المؤلم، وأن يشدّ على نفسه أمام هذا الشعور الضاغط بأنَّ ما يفعله الآن ليس إلا عبثاً سينتهي إلى إخفاق بين فكّي ذئب ملعون، وقرر حاسماً هواجسه: «لن أخرج من هنا ما حييت». رجع للارتخاء.

فكّر، مستغلاً الاقتراب غير المحدود من نفسه، بحياته إذا نجا من الذئب.

بدت له عديمة الوجهة، تبخَّرت فكرة الكويت والبيت والأبناء من رأسه، لا جنوب يقصده، ولا شمال يحتاج الوصول

إليه. حدّث نفسه متسائلاً: «أليس الاختباء أفضل من الهروب؟ إلى أين الهروب؟ إلى بلدٍ لا أعرف أهله، أو إلى أهلي الذين لا أعرفهم ولا يعرفونني، هذا إذا نسوا ما فعله أبي بآبائهم، السنون لا تجعل الدم يصبح ماء، بل ربما سيثأرون.. ربما يطلبونني للنزال».

فكّر: «حياتي الآن هي في محاولاتي الاستمرار في الحياة، وفي النهاية قد أفشل وأموت»؛ تضاعف يأسه.

لمس كتفه الملتهبة برفق، وما إن مسّها حتى وخزه الألم كحدّ خنجر محمّى، كانت الجروح الأربعة نافرة ومتهيجة. «الاختباء أفضل» قال في نفسه: «لأنه يريح المرء من أية مواجهة».

مسح سيلان أنفه بكُمِّه، وانتبه إلى أنّ الصوت الذي كان يظنه صوت الهواء ما هو إلّا صوت صفير صدره، سعل متعمّداً، السعال يحسِّن تنفسه ويخرج السائل اللزج الذي يسدّ رئته، بصقه على جنب، رفع الزوّادة قليلاً ليغيّر هواء الجحر بعدما أفسدته أنفاسه ورطوبة عرقه، لم يعُد ثمة رمل يندفع إلى عينيه، فترت العاصفة إلى ريح نشطة. الظلام الذي يراه الآن إما ناتج عن غبار لا يزال عالقاً وإمّا عن غيوم سوداء محمّلة بمطر غزير تمنع رؤية النجوم.

رغب في تأمّل الظلام مرة أخرى، وجده يتيح لذهنه الانطلاق فوق أفكار جامحة وغير مسروجة، غير أنّ هاجس الذئب لم يترك له فرصة للتأمل؛ أصاخ سمعه لعله يسمع تنفسه أو صوت حركته أو أي شيء يعزّز يقينه بأن الملعون رابض فوقه..

لم تلتقط أذنه غير نغم وشوشة سيقان نبات الثندة من جراء تلامسها من الهواء، أزاح الزوادة ببطء مراعياً الحيطة ليوسع الشقّ ويسمع بشكلٍ جيد. اشرأبَّ؛ لم يجد سوى الوشوشة المتواصلة، استمرت شكوكه الأفعوانية حول الكمين الذي أعده الذئب تتلوّى أكثر، داهمه إحساس أكيد بأنه على الطرف الآخر من الثندة متحفزاً للقفز عليه.

تذكّر أن هذه إحدى حِيَلِهِ في صغره لاصطياد الأرانب والجرابيع والضبّان، وهي أن يكمن صامتاً فوق جحورها، بعد أن يدفن خيطاً صوفياً رفيعاً، معقوداً على شكل حلقة، حول فتحة الجحر، وينتظر هكذا ممسكاً بطرف الخيط، حتى تخرج الصيدة رأسها، ثم بحركة سريعة يشده، فيزمّ حلقته، فإنْ وافقه الحظّ علقت الصيدة، وإن لم يوافقه أعاد الكرَّة مرة أخرى في جحر آخر.

ابتسم بعناء، متذكراً مقلباً في صباه أوقع به «حميدان الغصاب» الذي كان من غطرسته يستولي على أيّ كمين شاء، أو يستولي على صيد الصبية. «ههه» ضحك بوهن، مسترجعاً ما حدث ذات نهار قائظ من مطلع صيف في سنوات طفولته، فيما كانت الحرارة تشتدّ، وتضطر الضبان لأن تخرج رؤوسها من الجحور لتبترد، كان ينتظر فوق جحر ضب، متأهّباً لشدّ الخيط، عندما رأى حميدان يمشي من البعيد باتجاهه مرة أخرى بعد أن أخذ كمينه بالأمس.

لمّا رآه يقصده، ترك جحر الضب الذي يترصده وذهب إلى

جحر آخر تبيّن له مع بداية اشتداد شمس ذلك النهار البعيد أنه ليس جحر ضب، عقد الخيط وانبطح خلفه حتى جاءه حميدان وعلى وجهه تكشيرة الاستعداد للعراك، وأمرَه: «انقلع عني» فقام بلا اعتراض ومضى إلى الخيام وفي صدره أمنية ورضى غامر، وقبل أن يصل، سمع صرخة حميدان.

ضَحِكَ مِلْءَ صدره، وانتابه السعال بقوة، بصق السائل اللزج عند كتفه، وسأل نفسه: «أي شيطان خبيث حدثني بما فعلت به؟». ضحك مجدداً مستعيداً صراخ حميدان المذعور عندما تفاجأ بأنّ الرأس الذي علق به الخيط ليس إلا رأس وَرَلْ ضخم كاد ذيبان يصطاده أول النهار. اضطر للاختباء ثلاثة أيام في خيمتهم، تجنّباً لثأر حميدان، محتملاً توبيخ أمّه على جبنه، وفي اليوم الرابع عندما خرج يرعى الأغنام، خاتله حميدان، عند المرعى، وضربه بعقال الإبل حتى أبكاه.

«لو يعود بي الزمن إلى تلك الأيام» تمنى وهو يمسح جدار الجحر ويتحسَّس جذور نبات الثندة: «لو أنني تعاركت مع حميدان عراكاً يشيب له رأسه، لما صرت الآن في هذا الجحر».

حرك أصابع قدميه، ثم حرَّك قدميه متفحِّصاً سلامتها، اطمأنّ، خفّ تصلب عضلات فخذيه شيئاً ما عن ذي قبل، لكنه ما زال موجوعاً، أما الحشرجة التي في صدره فلا تزال متصاعدة، ما إن تصل إلى ذروتها في الإطباق عليه حتى ينفجر صدره بسعال

قوي متوالٍ يكاد يمزق مثانته الممتلئة، ولا يهدأ إلا عندما يخرج السائل اللزج. مسح مخاط أنفه بيده، ومسح يده بثوبه.

ستلتهب يده المجروحة، ستلتهب، لا شك لديه في ذلك، وستشتعل في بدنه الحمّى، وإذا استمر محشوراً هنا حتى يوم غد فربما سيكون.. سيكون قد مات: «إذا مكثتُ ميت وإذا خرجت ميت».

تساءل: ماذا استفاد في ثلاثين حولاً عاشها؟ «لا شيء» أحزنه جوابه عن تساؤله، «نعم لا شيء».

استعرض المكاسب التي لم يحققها: لا حلال يرعاه، لا زوجة تعتني به، لا أبناء يربيهم، لا مكان يأوي إليه، لا قبيلة تحميه.. لا شيء، مثل الظلام.. لا شيء. تهكّم محدّثاً نفسه: «لو كان في عمري خير لما انتهى الحال بي مدسوساً مثل ضب في هذا الجحر». شعر برغبة غريبة بالضحك والبكاء معاً. أسف على نفسه، شعر بأنه غريب، غريب ووحيد.

عرض محطات حياته في ذاكرته، الصفة الغالبة على حياته هي الخيبة، لم يحرز فلاحاً قط. حتى قصائده التي تمتدحها الفتيات ويحفظنها، ليست سوى تأكيد على الخيبة، لأنها دليل على أنه لا يجيد إلّا الكلام المنمق المصفوف.

«كوبااااان» هتفت أمه برأسه.

«لماذا أنا هكذا؟» راجع نفسه مجدداً، لماذا هو هكذا،

خائب كما تقول أمه، رديء كما يقول له الرجال؟ ألأنه لا يأخذ الأمور بالجدية التي تتطلبها، أم لأنه لا يرغب في مواجهة أي شيء؟ أو قد يكون من الشعور الذي يلازمه قبل الشروع بفعل أي شيء ما بأنه سيخيب فيه. حدّث نفسه: «ولماذا أخاف من الموت؟ ألأنني لا أعرف ما يأتي بعده، أم لأنني أحببت أشياء كثيرة في حياتي والموت هو الشيء الوحيد الذي أعتقد بأنه سيأخذني من كل ما أحببته؟.. آه الموت.. لا أحد عاد منه ليخبر ماذا وجد هناك، كل ما هنالك هو قصص من العجائز عن بيوت شَعر تَسَع السماء، وفتيات جميلات في أعينهن حَوَر فاتن، وأنهار تجري، وأغنام تكفي الواحدة منها ثلاثين رجلاً يتضورون من الجوع، والأمر الأهم هو الخلود.. كيف أصدّقهم في أمر لم يره أحد؟.. لعلّ الناس صدّقوها لأنها فكرة أعجبتهم وأيضاً تناسب حاجاتهم ورغباتهم وشهواتهم، وإلّا لماذا تكون أنهار ونساء وخيام ونعاج؟ أليست الأشياء التي يشتهونها في حياتهم؟ الخلود أيضاً من الأشياء التي يتمناها الناس في الحياة، ولكن.. «آآآه» أمسك وجهه، وأكمل: «ما هذا الجنون الذي أنا فيه؟ أين إيماني بالله الذي يكرم الرجال الكرماء؟ هل أخذتني الحمى من عقلي؟ طبعاً أنا أهذي ولا شك، الله سيكرمني، نعم، سيكرمني يوماً ما، أنا أستحق».

«أأأح» توجّع من يده التي زاد الضغط فيها كأنها ستنفجر، «والآن ماذا؟» خاطب نفسه: «أنتظر الموت هنا؟ هل موتي هيّن عليّ أيضاً». نحّى مؤخرته باسطاً جنب ظهره الأيسر على جدار

الجحر شاعراً بِقِرْبَة مثانته الممتلئة تميل معه، وأردف في نفسه بعزم: «إلّا حياتي، هي كل ما تبقّى لي، لن أخيب دونها»، أحسّ بتدفق دمه إلى رأسه: «مهما كان بها من خيبات.. حياتي غالية.. وجديرة بأن تبقى غالية»، رفع مؤخرته زاحفاً بظهره إلى الأعلى، مقرراً أنه يجب أن يخفف عن نفسه هذا البؤس قليلاً، رفع طرف الزوادة، أطلَّ بعينيه إلى الظلام، وجد مزاج الريح يهدأ وفي طريقه للسكون، وقدّر أن الغبار سيركد على الأرض قبل الشروق. غامر مغامرة كبيرة مدركاً حجم خطورتها، إذ بسرعة مضطربة أخرج يده من الجحر إلى جيب الزوادة، عبث بها، تحسَّس بأصابعه الطعام، ويا للحظ، «لا يزال موجوداً، لم يسقط». زاد حماسه، جمع ملء قبضته، وأعادها إلى الجحر بلمحة عين. عدّها، ثماني تمرات وقطعة أقط كبيرة، التهم أربع تمرات دفعة واحدة. استغرب الصوت الذي يخرج منه أثناء المضغ، أنين، قد يكون أنين حنين، أو.. أو آهة بلوغ المرام. لقي في التمرات مذاقاً لم يطعم مثله قط، فكّر: «هذه التمرات تستحق المخاطرة بحياتي». وجدها كقطوف الجنة التي حدّثته العجائز عندما كان صغيراً عن حلاوة تمرها الذي يُسْكِر طعمُه الذائقين.

«وطعم هذه التمرات مُسْكِر أيضاً» قال في نفسه بعدما أبهجته حلاوتها المكتنزة، وأشعرته بتحسُّنٍ فارِقٍ، حتى إنها قلَّلت لديه من أمر الذئب. بصق النوى، وقضم الأقط، استلذّ حموضته كما لم يستلذها من قبل. تمهّل في التمرات الأربع المتبقية، ملتقماً كلّ واحدة على حدة، عندما وصل إلى آخر واحدة أطال مضغها كأنه يريد لها ألا تنتهي. «الآن بقي الشُّرب» قال بعدما لفظ آخر

نواة منتبهاً إلى أنه لمس القربة في الجيب: «إذا شربتُ فقد ينفجر البول.. لا بأس.. الآن أفضل من قبل قليل على أية حال».

قال في نفسه «الجوع يجعل الطعام، مهما كان رديئاً، لذيذاً.. مثلما يجعل الخطرُ الحياةَ، مهما كانت سيئة، جميلةً».

صمتت الريح في الخارج، رفع طرف الزوادة، لاحظَ أنّ الفراغ الذي بين رقعة الزوادة وحافة فوهة الجحر شفَّ لونه قليلاً بحيث أمكنه تمييزه عن الحلكة المحيطة، مستنتجاً أن السماء غائمة، وأن الصباح قريب.

أنصت ملء أذنيه إلى هيمنة يد الصمت وهي تكتم فم المكان، صفيرُ صدرِه فقط يئزُّ، قرَّب أذنه من حدود حافة الجحر رافعاً رأسه إلى الخارج، لينصت أكثر. بدت له دقّات قلبه كدقات نجر على حبوب قهوة. ولوهلة، توهّم أنه سمع خطوات تقترب.. خطوات ثنائية لقدمَي بشر.. حبس أنفاسه التي أخذت تتلاحق ويرتفع معها أزيز صدره.. أغمض عينيه ليركّز إدراكه بكامله على السمع.. هل يتوهم؟.. أنها خطوات.. أرهف أذنيه.. وكانت لحظة خاطفة، مرّ خلالها صوت عزف ربابة متداخلاً مع غناء يشدو بأبيات ما.. صوت كأنه يأتي من جهة أخرى من الكون، يتداخل في رأسه مع حقيقة أنه حيّ، بحيث شعر أنّ للصوت معنى ينقُض معنى الموت.. هاج صدره فانفجر بسعال عنيف، حاول كبته فأخفق.. استمرّ يحاول التقاط الصوت رغم السعال. كان

الصوت يقترب ويبتعد مع بداية صوت الكحّة ونهايتها، كما لو كان يراوغه، ومع هذا تمكَّن بصعوبة من التقاط جزء من الصوت، شيء انتهى بقافية «يعشّيه»، تتثنى على وزن المسحوب، وفجأة توقف السعال عند هذه الكلمة ولحنها، أصاخ السمع مجدداً، وهو قابض على أنفاسه، لم يسمع غير طنين فارغ بأذنيه، اختفى الصوت كأن لم يكن، فكّ عن صدره نَفَسَه وانزوى مكانه؛ ما هذا الصوت الذي سمعه للتو؟ لا يمكن أن يكون وهماً، هذا صوت حقيقي، حقيقي لدرجة.. كما لو أنه تلقّى لدغة ثعبان، اضطرب جلده وسرى الخدَرُ نازلاً من رأسه إلى سائر جسده حالما تذكّر الأبيات التي حلُم بأنّ الذئب يشدو بها، همس: «كأنها هي»، اقشعرّ بدنه، وفكّر: بل إنها هي، «عشّه ترى ابن آدم لزوم يعشّيه». جحظت عيناه في الظلام منتبهاً إلى أنّ الصوت.. الصوت كان صوت الذئب نفسه في الحلم. اجتاحه شعور غامض، ليس كشعور الخوف، بل أثقل من ذلك وأشدّ وطأة على الذهن والروح والمفاصل.. أزاح رأسه إلى الوراء، وكمش جسمه بقوة، يريد الاختباء داخل نفسه، احتقن قلبه بذعر قاتل، ذعر لم يشعر به طيلة حياته:

«جنّي.. جنّي.. جنّي».

لحظات مريعة نهبته، تناوبت رأسَه بها أفكارٌ مراوغة، قادته نحو مخاوف مستطيرة من الصوت الذي سمعه.. هل هو صوت جنّي يريد الأذى لعقله، أم هو صوت الريح وأزيز سيقان عشبة الثندة؟

أول ما التمس به طمأنينته هو أنّ الصوت لا يعدو أكثر من وهم، «الريح، تفعل هذا، دائماً تفعل هذا»، لكن سرعان ما هجم عليه خوفه بأنّ الريح لا يمكن أن تقول بيت شعر سبق أن سمعه في حلم. قاوم خوفه بحقيقة يعرفها الجميع وهي أنّ الجن تخاف من الذئاب، وهناك ذئب فوق رأسه الآن، لذلك الصوت ليس للجن، وسأل نفسه أثناء نوبة سعال: «إذن لمن؟»، استعاد الصوت مرة أخرى في ذاكرته، الصوت صوت شحذ سكين له نبرة آدمية ذات نهايات موسيقية متمايلة، «لكن مهلاً».. باغته خاطرٌ جَمَعَ شتاتَ ذهنِه: «لماذا لا يكون الذئب هو المتكلم؟» ابتلع ريقه.. الذئاب لا تتكلم، نعم هي ماكرة، غيرَ أنّ التكلم ليس من صفاتها، ولكن ماذا لو أن هذا الذئب مختلف، مثل حصان أبو زيد الهلالي الذي يطير، أو كما النسر الذي دلّ الملك سليمان

على مدينة عاد بن شداد الذهبية، هما مختلفان أيضاً عن بني جنسيهما، ليس كل الخيل تطير ولا كل النسور تتكلم.

«آآآآآآآه» دلَّك جبهته متأوّهاً، لا يعرف ما الذي يدور حوله، ولا يعرف كيف يعرف.

لوهلة رجع له ظنّه بأنه في حلم وما يجري له الآن ليس إلّا رؤى ستنتهي ما إن يستفيق ويجد نفسه في خيمته، قُرْب ربابته، وسينهض ويمسك قوسها ويعزف بها البيت الذي سمعه، وقد يضيف عليه أبياتاً أخرى ويطلقه للجميلات عند الغدير. «آه الغدير» تأسّف متذكراً أن شيئاً من ذلك لن يعود، الغدير والفتيات والربابة، كل ذلك انتهى في ذلك اليوم إلى غير رجعة، ومضى مضيَّ حلم ليلة، حلم مثل هذا الحلم.. «الحلم» همس عائداً بأفكاره من هروبها عن الحقيقة. «ما يجري الآن حقيقة، حقيقة مجنونة». دلك جبهته ثانية ضاغطاً على جانبيها بشدة، وحرّك رأسه فانهال الرمل من وراء ياقته إلى ظهره.

هل رأى جنّياً من قبل، فكّر يبحث في ذاكرته، لا، ولا يعرف أحداً رأى جنّياً، بيد أنه سمع عنهم قصصاً بعضها قالته العجائز، وبعضها الآخر قاله الفتية حول النار ليزيدوا الليل إثارة ويرعبوا بعضهم، عن رجال ظهرت لهم الجن في أماكن قفر بأشكال تختلف في كلّ قصة عن أخرى، كقصة الذويبي التي أرعبته رعباً شديداً عندما سمعها أول مرة، لدرجة أنه لم يرقد ليلتها إلى الصباح، وهو عن فارس شجاع يُقال له الذويبي بات ليلةً تحت شجرة أثل معروفة بأنها من مساكن الجن، وعندما فزّ

من صميم النوم على صوت ارتطام جسم ثقيل عند رأسه، وجد جنّية لها رأس ماعز وشعر فتاة حريري منسدل، ابتسم الذويبي وهو يمسِّد شعرها ليؤكّد لها صلابته قائلاً «شَعرٌ ضافٍ»، فقالت الجنية معجَبة بقوة قلبه الذي لم يمسه الخوف: «قلبٌ وافٍ».

وقصة أخرى لرجل أشعل ناراً في طريق سفره، فأوى إلى النار رجل قال إنه تائه، وبينما كان صاحب النار منهمك في إعداد الطعام وقعت عينه على ظلّ رأس الرجل على الأرض، فإذا به يرى ظلّ رأس ثور له قرنان ملتويان، فغرس الرجل خنجره بالأرض، وهو فعل يكبّل الجنّي عن الحركة ليلة كاملة، ولاذَ بالفرار.

صداع رأسه ينبض مع قلبه ويؤلمه، صار تفكيره صخرة ثقيلة وعليه أن يضرب رأسه بها حتى تتفتت عمّا بداخلها من فهم، عن مغزى أن يكون لقمة غصت في بلعوم ذئب.

لم يعد يعرف بماذا يجب عليه أن يفكر؛ بالموت أم بالجنّي، أم يفكر بغموض فكرة أن ذئباً يتكلم.

«سيأتي الصباح»، هدّأ من روعه: «سيأتي قريباً ويبيِّن كل شيء».

ارتخى مرة أخرى، لكن ظهره لم يزل متصلباً.

شيئاً فشيئاً راح يتجاوز التفاصيل ويفكّر بالنتيجة بتجرّد: «مهما يكن الصوت، فلا بد أنه سينتهي بي إلى الموت».

* * *

مرّ الوقت عبر صدره الضيق بمشقة، كما لو كانت فترة الليل تمضي مع دقات قلبه خفقة بخفقة. وأثناء ما كان يدير عينه لمح خيطاً أبيضَ أمامه، مدّ يده فانفرج الشق عن فجر ناعس يبصبص مثل جذوة تحتاج إلى نفخة هواء قوية لتشتعل. حدّث نفسه «الصبح أتى، الجن ولّت مع الليل، بقي الذئب، ينتظرني».

رفع طرف الزوادة أعلى لتتحسن الرؤية، رأى السماء رمادية، تتدلّى منها غيوم مثقلة. اعتدل وزحف بظهره إلى الأعلى. كانت الريح ساكنة تماماً، لم يكن هناك غير صوت صدره يذهب ويجيء مع السائل اللزج في قصبته، نَفَحَتْهُ نسمة هواء نقية، سعل لها، راح يستنشق الهواء العليل، مستشعراً أنه يجدِّد ما بلي من روحه، حاساً بمرور النسمات في سائر بدنه.

التمّ على بعضه فاتحاً الشق أكثر، وأطلق بصره في الخارج. فكّر بالخروج ريثما يَرْتُقُ نقاءُ الهواء شقوقَ روحه، المكث هنا سيقتله، كلما زادت فترة مكثه في الجحر زادت معها حالته سوءاً. رأسه سيغلي، لا محالة، إذا بقي هنا حتى ينفجر، وأيضاً قد يبول على نفسه، لا شكّ أنه سيفعلها ثانية، إذا لم يخرج ويتبوّل.

سيخرج.. سيخرج بحثاً عن النجاة، عن الحياة، عن كلّ شيء فقده، سيستعيد مباهجه التي تركها وراءه ولكن بصورة أخرى، يعرف أنه يمتلك تلك القدرة على إيجاد الجمال في أكثر الصور قبحاً، بواسطتها سيجد حياة أخرى جميلة بعيداً عن الناس، نعم سيخرج.. وسرعان ما انقضّ عليه خوفه من الذئب،

«لكنه فوقي»، واستدعت مخيلته صورة ذئب متحفِّز خلف ثندة يلعق أنيابه، همس يسأل نفسه: «إذن ماذا أفعل الآن؟».

بعد تفكير متقطع الأطراف تخللته صور دم وعفونة جرح وجسد مردوم بجحر، لم يجد غير حلّين، إما أن ينطوي هنا حتى يتعفّن ثم يموت، وإما أن يخرج ويأكله الذئب ويموت أيضاً. قلّب الحلّين في ذهنه: «إذا بقيت هنا فالموت مؤكد، وإذا خرجت فقد أجد الذئب وقد لا أجده». شعر بأنه يراوغ نفسه، ومع هذا أكمل: «وحتى إذا وجدته فلربما تمكّنت منه أو لعلي أنجح في الهرب».

استجمع شجاعته، سيواجهه، لا بد من المواجهة. تحسَّس الزوادة بكفه مخططاً: «إذا وجدته فسألفُّ رأسه بها وأطبق عليه نَسَمَه، غير هذه الطريقة لا يوجد». تحرك بالفعل، زاحفاً بمؤخرته إلى الأعلى ليُسند ظهره، سحب ساقيه مستعداً، «حان الخروج الآن» أخذ نفساً عميقاً، ثم تردّد قليلاً قبل أن يتوقف ويعدل عن المخاطرة «سينهشني»، وعاد كما كان، إذ رأى أنّ خروجه لن يكون مباغتاً ليفاجئ الذئب، فالجحر مائل إلى الأسفل ومنحشر من الأعلى، سيتعثّر في أفضل الأحوال قبل أن يُظهِر صدره، إذ عليه إخراج كتفيه أولاً ثم رفع مؤخرته وبعدها سحب قدميه والارتكاز عليهما ليستطيع الوقوف. «أليس هذا كافياً ليقضمني في أكثر من موضع؟». أرجع النظر في الخروج، «أحياناً يلقى المرء حتفه بسبب اندفاعه.. حسناً.. لا بأس من الحرص، القليل من الاحتراز ينجي.. سأنتظر الصبح، مكثتُ ليلة بكاملها هنا، لن يضيرني شيء إذا انتظرت انبلاج النور، قد يتركني ويذهب،

الذئاب تكره الصبح، أو قد يمرّ أحدهم من هنا ويهرب الذئب، هذا وقت العسّاسين»، الوقت الذي يبحث به العسّاسة لقومهم عن آبار مترعة مع اقتراب الصيف.

* * *

انكشف العالم، رفع الزوادة ورأى النور يجلو وجه الأرض. السماء غائمة ولها زرقة ظليلة أخّاذة. بصُر أمامه، على بُعد خطوات، ثندة كسنام بعير، وعن يمينه، بأقصى زاوية يمكنه النظر منها كانت ثندة أخرى.

استنشق الهواء، بالكاد استطاع أنفه المريض أن يشم شيئاً ضئيلاً من رطوبة الصباح المشبعة بمزيج منعش من روائح الأعشاب العطرية، وأحسّ السكون، إذ لا شيء يتحرك بتاتاً. «هل أخرج الآن؟» تساءل وخوف الذئب لا يزال مكشراً في نفسه عن أنيابه. فكر: «ماذا أنتظر، إذا استمررت على هذا الحذر فلن أخرج من هنا ما حييت، يدي ستتعفن وسيتعفن معها جسدي كله».

أجال النظر مرة أخرى، يميناً وشمالاً على حدود فرجة الجحر مطمئناً نفسه بأن الخطر قد زال، كل شيء هادئ في الخارج، قد يكون الذئب يئس منذ بداية العاصفة أمس وولّى إلى بعيد، هذيان الليل ليس أكثر من هذيان رأس مسّته حرارة، وما إحساسه بوجود الذئب الآن فوقه إلّا وهمٌ لم يعثر له على دليل يحقّقه.

اضطرب، من يصدّق الآن: إحساسه المتيقن بأن الذئب فوقه أم عقله الذي يشك في وجوده؟ تنازعه الاثنان عن إرادته.

فكّر: موتي سيكون هنا.

أحسّ: الذئب فوقي.

فكّر: سأخنقه بالزوادة.

أحسّ: فاغرٌ فاه.

فكّر: أنا ميّت ميّت.

أحسّ: يلعق مخالبه.

«يا ويلييي».

كفّ عن التفكير والإحساس بشيء، كذّب الاثنين معاً، صمت يفرغ رأسه من الجدال.

وبعد برهة قصيرة حسم أمره: «سأخرج، وإذا وجدته فلن يكون الخروج إلّا سبباً أقل احتمالاً من سبب المكوث هنا لموتي».

أخرس الأصوات التي عادت تجادل بعضها في داخله، سيخرج خروجاً سريعاً قدْر مستطاعه.. ثبّت قدميه في القاع.. سيقفز قفزة تصلُ به إلى السماء.. اعتدل.. لم يتوقف شعوره بأنّ الذئب فوقه، فحدّث نفسه وهو يرتفع بمؤخرته: «سأطبق عليه الزوادة وأخنقه»، شعر بأنه إمّا سيولد من جديد الآن أو سيموت، وفي اللحظة التي همَّ فيها بإزاحة الزوادة عن رأسه والانطلاق خارجاً، عبَرت أقدام الذئب من أمامه تماماً.

غاص مكمِّماً فمه بيده من هول ما رأى، جاحظاً عينيه وسع جفنيه وهو يحدّق بأقدام الذئب تبتعد وتبتعد حتى بان ذيله الرمادي الممسوح بسواد، وبعد خطوات كان جسم الذئب كاملاً يتمايل في خطاه أمام عينيه المشدوهتين.

كان شعوراً بالانتصار، ذاك الذي طار بقلبه، مختلِطاً مع حبور مَنْ أفلت مِن موت محقَّق، وهو يرى ذيل الذئب الغليظ يتمايل، مولّياً ظهر الهزيمة، مبتعداً عنه. رفع الزوادة مخرجاً رأسه وشرع يتتبع الذئب بعينيه وهو يغيب منكسفاً وراء ثندة، ويخرج من وراء أخرى أبعد منها، فيختفي ويظهر مبتعداً أكثر، وشيئاً فشيئاً قام ذيبان يخرج جسده أثناء متابعة الذئب حتى أصبح يحبو خارج الجحر مختلساً النظر بين سيقان الثندات، إلى أن اختفى الذئب بعيداً وراء مرتفع.

مسّته نفحة هواء صاقعة، أرجفت جلده، استشعر معها بمدى درجة سخونته، وبسرعة التقط الزوادة وراح يحبو على أربعٍ خلال

الثندات إلى الجهة الأخرى مراعياً عدم الضغط على يده اليمنى من الألم، قاطعاً مسافة رمية حصى، ثم نهض على قدميه، خطوتين واختل توازنه فوقع.

ارتكز على ركبتيه أخرج مثانته بعجالة، مديراً عين الحذر في ما حوله، فأفرغها متابعاً الدفق السليط والساخن يجري منحدراً على الأرض، أصفرَ غامقاً قبل أن يتشربه الرمل، مُصدِراً تأوهات حارّة بين فينة وفينة من لذة الاستفراغ. شعر بأن الاستفراغ نعمة كبرى لا تقلّ عن نعمة شُرب الماء على ظمأ، ولا يمكن أن تستمر الحياة دونها.

أحسّ، لمّا انتهى، بأنه تحرَّر من ثقل كان يموج في داخله، وخفّ وزنه عمّا كان عليه لحدّ الشعور بالارتفاع عن الأرض.

اجتاحه الظمأ، مسح رأس عضوه بحفنة رمل، وفتح القِربة وعبّ منها، لمس انتعاشاً يسري من بطنه إلى بقية أعضائه، عبّ حتى فاجأته كُحّة جعلته يشرُق بالماء، سعل قليلاً وتوقف ليحوز نَفَساً ثم عبّ مرة أخرى.

تندّر متأثراً بسعادته كأنه يضاحك أحداً معه: «لا يبول ويشرب إلا الأحياء»، وضحك ضحكة هشّة كسرتها نوبة سعال.

نظر إلى كتفه الجريح فإذا بكمّه مفتوق ومدمّى، رفعه، فهاله منظر الجروح الأربعة، تسير في جلده بسواد دم متخثر وتحيطها زرقة غامقة وانتفاخ ملتهب.

«تجب معالجته» قال، والتفت حوله مُمِرّاً بصره على النباتات المتشابكة والثندات التي تزيد من خطورة المكان، وأضاف: «لكن أولاً يجب أن أبتعد من هنا».

وقف مرة أخرى متمالكاً ثقله بالكاد، تنمّلت عضلات فخذيه وساقيه. ما إن تقدّم خطوة حتى وقع مجدداً. سعل حتى بصق السائل اللزج، كثيفاً أخضر اللون وغامقاً. ذهب يحبو ساحباً الزوادة بيد، ملتفاً بين كثيب الثندات، إلى أن تعب وشعر بأنه يجب عليه أن يسجّي إنهاك جسده على الأرض. استلقى متوسداً الزوادة، فارداً بصره في السماء، «لم يكن وهماً»، قال في نفسه وهو يرى روعة تهافت الغيوم على بعضها، «كان خلفي فعلاً، متربصاً ينتظر خروج رأسي.. ما شعرت به كان حقيقة.. آه.. ماذا لو خرجت، ماذا لو صدّقت بأنه ليس هنا كما اعتقدتُ لوهلة.. آه.. الحمد لله». ساوره إحساس بأنه ملك نفسه الآن، طليق، يفعل ما يشاء، حر.

لن يتوقف الذئب الملعون عن مطاردته، هي جولة ربحها، ولم تنتهِ المعركة بعد، سيعود قبل مغيب الشمس بالتأكيد، مقتفياً رائحته حتى يصل إليه، «ما الحل؟» همس. بينه وبين أخواله مسيرة نهار، وبينه وبين قرية النفود مسيرة نهارين، فكّر، لن يعود إلى أخواله ولو طاردته ذئاب الدنيا. إذن.. القرية: «هذا يعني أنه يجب أن أكون متأهباً لمجيئه القادم، سأجمع الحصى لرميه، وأحدُّ صخرة لتمزيقه».

سرعان ما شعر بأن جسده سيخذله في المرة القادمة؛ حباله

ترتخي ونار قوته تخبو: «آآآآه.. إنني مريض» همس: «لن أقدر على مواجهته».

قام.. ترنّح قليلاً حتى تمكّن من موازنة عوده، ثم شرع يخطو قدُماً بأناة، شاعراً بتغير، إذ أدرك أنه يفكّر جدياً بمواجهة ذئب، لم يكن يجرؤ على المواجهة كائن من كان من قبل.. «ذئب» همس وحرارة التحدي تزيح في صلبه مكاناً لحرارة السخونة.

أرعدت السماء، وكانت كقماش حرير رمادي يتهفهف.

سعى بين الثندات الكثيرة متفادياً النباتات الشوكية التي تلقي الشوك على قدميه، ومحاذراً، قدر مستطاعه، ألّا يقع في متاهة تعيده من حيث جاء.

«ولكن أين يتجه الآن؟» سأل نفسه، الغيوم حجبت الشمس، لا يستطيع أن يحدِّد وجهته، دار حول نفسه ينظر إلى الأفق لعلّه يستدل بشيء، وبعد لحظة تأمُّلٍ قرّر أن يمشي كيفما اتفق هامساً بإصرار: «ليس التائه الذي أضاع الطريق، التائه الذي لا يعرف ماذا يفعل».

نظر إلى جرحه، ملتهباً يتصاعد ألمه، يجب عليه معالجته فوراً وإلا فسينتشر الالتهاب في بقية أطرافه ويموت، عليه أن يجد نبات الجثجاث، الجثجاث والشيح.

كما لو أن الأمر مناط بذهنه، ما إن فكر بالشيح حتى وجدها

تفترش الأرض على بُعد خطوات منه، مال إليها، أمسك ساقها وشذب أوراقها، لاك الأوراق الصغيرة، تضوّعت عصارتها العطرية في جوفه، تفل الأوراق وابتلع العصارة التي تُذهب سخونة الجسد الملتهب وتشرح الصدر من الضيق.

أعاد الكرّة مرتين حتى اطمأن أنه ابتلع الكمية الكافية. اقتلع عدة سوق بأوراقها ووضعها في الزوادة ومضى.

مشى مشياً متعذراً في البداية، حتى استعاد ثباته بعد أن أكل ثماني تمرات وكسرتي أقط أمددنه بالقوة الكافية، غير أنه لم يبرح يشعر بأنه مضعضع وغير قادر على الاتزان. تابع المضي حتى استوت الأرض وانبسطت أساريرها، وعادت زهرات النوير تراقص النسيم برؤوسها الصفراء في هذه البقعة، دفن التراب بعضها وبقي بعضها الآخر مشرئبّاً وسامقاً، سمع من البعيد صوت صفير أم سالم، أحسّ بأنها تحييه، وغمره سلام لم يعرف له مثيلاً من قبل. ولولا السماء الغائمة لما استطاع التحرك قيد خطوة، إذ نفخ منظر الغيوم الخلاب جمرة قوته فتوقدت شيئاً ما بتصميم.

شعر بأنّ كل شيء اتسع عن ذي قبل، السماء انفرجت، الأرض ترامت أطرافها أبعد من المعتاد، وأصبح نظره أوضح وأكثر قدرة على رصد كُنه الأجسام البعيدة وتفاصيلها، بل وحتى أصابع قدميه تباعدت عن بعضها وافترشت على القاع بشكل مريح. فكّر بالجحر وهو يتوقى حِواءً من النباتات الشوكية، أعطته ليلة الجحر درساً عما يمكن للمنظر أن يصنعه بنفس المرء، فهم

أن النفْس تضيق بضيق المكان، وتتسع مع اتساعه، أين ذهب ذلك الضيق الذي كاد يعصره أمس؟ ألم ينفك عندما خرج؟ لا بد أن العين هي مدخل الصدر، كما أنّ الفم مدخل البطن، وهذا هو الدافع وراء رغبته رؤية الفتيات، لأنهن جميلات، يلقي دلو عينه في آبار جمالهن المترعة بالسرور ويسحبه ممتلئاً سروراً ورضى غامراً عن النفس واتساعاً رحباً في الصدر، لهذا خلقت العين على شكل وعاء يصب فيه المرء الجمال ويشربه الصدر هنيئاً، أما رؤية القبح فتضيّق الصدر، طالما شعر بضيق حَرِجٍ لدى رؤيته أي شكل من أشكال القبح التي تأتي كثيراً في صورة أخلاق أو صوت أو حتى تصرفات رعناء. الجمال والقبح، الشيئان اللذان يتجاذبان صدر المرء عن سروره أو كدره.. ولكن يبقى هنالك لغز لم يستطِع حله، هو لماذا هنالك حالات يختفي منها جمال الأشياء الجميلة، بل ويستحيل قبحاً فظاً، وذلك عندما يشعر بالتهديد أو يكون في خطر، ولماذا في حالات أخرى تصبح الأشياء القبيحة بالغة الجمال والرقة، ويحدث هذا عندما يغمره الأمن بعد تهديد مُحْكَم؟.. حكّ رأسه.. شعر بأنّ المسألة تريد ظلاماً دامساً، كظلام الجحر، يسمح لعقله بالانطلاق في مسالك هذه الألغاز المدجّجة بالغموض ليفهم الحياة ويستشف حقيقة الدنيا.

توقف يشرب من القربة، مُجيلاً نظره في ما حوله.

أحسّ بأن الدنيا ليست ما يراه الآن، لأن الرؤية تخضع لمزاج النفس وحالة الشعور، إنها شيء آخر غير الخدعة التي ينظر إليها في كلّ مرة يظن أنه ينظر فيها إلى الدنيا، تابع المسير، وركض بعقله خلف شكٍّ أغواه محدِّثاً نفسه: «كيف يمكنني التأكد

من أنني لست في حلم الآن؟. . الحلم أثناء ما هو حلم دنيا حقيقية كالدنيا التي أعتقد أنني أراها في الحالة التي أسمّيها اليقظة». . «الموت» تمتم وهو يرفع رجله متجاوزاً أغصان نبات الأرطا الغليظة. . «يجب أن أموت حتى أعرف حقيقة الدنيا، أو أمضي قدُماً وأتجاهل أن لها حقيقة أخرى، وأعيش بقية حياتي متجاهلاً أنها ليست سوى حلم. . لكن لماذا هذه الأفكار المجنونة، ومن أين جاءتني؟ لا يهم، الآن أنا في ظرف يستلزم مني التركيز للعثور على فكرة تنجيني من فك الذئب، وبعد ذلك سيكون لدي من الوقت ما يكفي لجنوني».

امتداد شاحب راح يزهو بالقاع، مع كلّ فرجة يقطعها منها، إلى الأخضر الفاتح، ويغمق تدريجياً بازدياد الأعشاب. ظلّ يواصل المسير متناوباً نظره بين القاع تحت قدميه والأرض من البعيد. وحيث وجد أنفه يستعيد شيئاً من قدرته على شم الروائح، إذ علقت فيه رائحة خزامى فتيّة، شعر بأنّ الشيح بهذا قد بدأ عمله في تنقية باطن جسده وتثبيط الحرارة التي تتلظى داخله وتسبب له رعشات تعتري حنكه بغير ما إرادة.

وفجأة صرخ ملء رئتيه، عندما عاد بنظره من الأفق إلى الأرض أمامه: «يا ربي ربااااه»؛ إذ رأى جثة رجل ميت.

كان رجلاً ميتاً، متيبس الأطراف، جامد الملامح، كما لو مات وهو يعاني شيئاً، منطرحاً بجانب كثيب أوقف نباتُ القشع الشوكي تمددَه.

سقط على ركبتيه، إذ لم يمكّنه جسده من التماسك أمام رهبة جثة ميتة، أدار بصره، وهو في مكانه، يميناً وشمالاً خشية أن يكون السبب الذي قتله قريب، وجد كل شيء حوله مسالماً ولا يدعو للذعر. اقترب منه يحبو، تفرَّسه، خمّن أنه شاب، رغم ملامح وجهه المتألمة إلا أنها لا تزال قادرة على تحديد عمره، لحيته تقول إنه ابن العشرين حولاً، نصفه العلوي مدفون ولم يظهر منه شيء غير وجهه وساقيه المتشنجتين اللتين ارتفعتا عن الأرض قليلاً.

جلس يُمعن النظر فيه حتى انقشع خوفه، فدنا خطوتين على ركبتيه حتى جلس قرب رأسه. لم يجد رائحة تفسُّخ، خمّن أنه مات فجر اليوم، بالوقت الذي يكون فيه الموت بعيداً عن حسبان المرء.

تأمّل الوجه المتقلّص، نُزِعَت منه البهجة التي تظهر على وجوه الأحياء مهما بلغ بها الكمد. لا شيء يرعب في الموت، فكّر، هو النهاية التي لا بد منها بعد آخر قطرة حياة تخرج من قربة الروح.

«إنه الموت» قال يخاطب الجثة بنبرة عزاء: «كلنا سنموت.. لن يبقى أحد إلى آخر الدهر».

فكّر: «هو الآن جثة، جثة فقط، لم يعد هنالك شابّ بعد أن مات، الموت يمحو الصفة والقرابة، هذا الجسد الآن لم يعد له المعنى الذي يرفع قيمة الأحياء عن التراب، عندما يموت المرء يصبح رملاً لا جوهر له، أما اسمه، وحقيقة مَن هو قبل أن يموت، فلا يعرفه إلا مَن كان يعرفه أثناء حياته، شيءٌ لا يتجاوز الذكرى. ولكن أين هو الآن، هل استيقظ في دنيا أخرى وظنّ أنه حَلمَ بأنه مات، أم ربما ذهبت روحه إلى الله، وهي معززة مكرمة الآن؟».

أجال النظر حوله يبحث عن أي شيء يدل على سبب موته، لا يعقل أنه مات هكذا وحده.. تطلّع عن يمينه وشماله.. وقف.. خطا مبتعداً خطوات، ورجع مجيلاً بصره بالأرض، العاصفة محت كلّ أثر.

وضع الزوادة عن كتفه ثم اقترب أكثر من الجثة وأزال التراب

من فوق صدره، الجسد سليم، وجده ملتحفاً بفروة، أبعد نطاقيها ونبشه، فلم يعثر على أي طعنة أو عضّة، تطلّع إلى وجهه المتوجّع، وتساءل: «لماذا كل هذا الألم، هل الموت مؤلم؟»، تذكّر وجه متعب، عندما سقط بجانب الغدير، كان يرزح تحت وطأة وَجَع بالغ اعتصر وجهه حتى توقف عن الحياة وبقية ملامح وجهه متألمة.

تفقّد الفروة من تحته، لا بأس بها، رفع الرأس ونزعها من تحت الكتفين، ثم سحبها بجهد بالغ من أسفله. لمّا أخرجها وجد الجثة متمنطقة بحزام يضمّ إلى جنبها خنجراً تلُف نصلَه خرقةٌ. سحبه، أزال الخرقة فوجده صدِئاً وله مقبض ملفوف بجلد مهترئ، ولم تكن شفرته مسنونة.

«لكن ذبابتها حادة، وهو خنجر على كلّ حال» قال وهو يضعه في الزوادة، وأكمل كأنه يعتذر «ستمطر بعد قليل وسيبرد الجو بعدها.. الفروة لن تنفعك.. ستقيني البرد.. الحيّ أولى من الميت».

نفض الفروة وتفقدها، وجد فيها ثلاث رقع، وفتقاً طوله شبران من الداخل، ما إن ارتداها حتى شعر، ككل الأشياء التي يتركها الموتى خلفهم، بأنها تشتمل على شيء من روح الميت، ووجدها أطول منه.

وقبل أن ينصرف، أحسّ بأن عليه شكرَ الجثة، لا يمتلك من القوة والوقت ما يستطيع بهما دفنها، لا شيء لديه يقدِّمه.

قال رافعاً يده: «بيّض الله وجهك». وذهب في طريقه.

* * *

أكمل مسيره حتى ارتفعت الأرض وأصبحت نجداً متصاعداً، وتابع طويلاً حتى انحدرت إلى وهد يسيح ويقف عند سهل مرتفع آخر.

لا يزال على الطريق الصحيح، عرف هذا بعد أن استدل برجم(*) ثلاثي، وجده بعدما ترك الجثة بقليل، تراكم على ثلاثة أماكن تفصل بينها مسافة قصيرة، سمع أنه إذا وضعها على شماله وسار مستقيماً فستكون النفود أمامه.

أحسّ بأنه سيسقط عن قريب، في أية لحظة، وإذا سقط فسيصبح نهوضه صعباً، هذا إذا استطاع النهوض أصلاً، لأن ما يشعر به الآن هو ارتجاف واهن في قلبه وليس نبضاً، كأنه سيموت مثل ميتة الشاب الذي عثر عليه في الصباح.

في طريقه وجد نبتة جثجاث وضعها في الزوادة ومضى، الآن يريد أن يجد مكاناً آمناً يواري ضعفه عن ضراوة الذئب.

قال لاهثاً: «في هذه.. المنطقة.. الكثير من.. من الدحول.. لعلّي أصـ.. ـادف أحدها». تمالك أنفاسه قليلاً،

(*) حصى متراكم فوق بعضه يضعها البدو كعلامات يستدلون بها على الاتجاه الصحيح.

وابتهل بصوت محزون: «يا الله .. أنت القو..وي .. أنت .. القوي .. الكريم، وأنا.. أنا دخيـ .. ـلك .. دخيلك .. يا ربي».

كان قد شعر بتحسن طفيف بعد مضغه أوراق الشيح مرة ثانية، ما لبث أن زال عندما أفحمه طول المسير، لم يكفّ صدره يخشخش، لكن مساحة الهواء اتسعت كثيراً وقلصت مساحة السائل اللزج، «يا ربي رباه» قال مستشعراً تفاقم وهنه: «يا الله.. دحلاً يحميني»، لهث قليلاً وأكمل: «أو جحراً.. واسعاً.. هذه المرّة».

ارتفع مع السهل، حيث كان الكثير من الحصى المدبّب منثوراً فيه، راعى الحيطة والتأني في مواضع قدميه، واستمر هكذا حتى شعر بأنه سيجد وراء رأس السهل مأوى، فاستعجل حاملاً نفسه فوق آلام وخزات الحصى.

هطلت عليه أول قطرة مطر، منذ الصباح والسماء غائمة ترعد دون أن تهطل، المطر سيزيد حالته سوءاً، أصبحت السماء رمادية أكثر الآن، لا يعرف كم مضى من النهار، ولا كم ظل.

عندما بلغ رأس السهل رأى كثبان النفود الحمراء مستلقية مثل فراش مترف أمامه من البعيد. إذا مشى محاذاة هذه الكثبان فسيجد قرية النفود.

داهمته حاجة ملحّة إلى أن يتوقف ويأخذ بعض الأنفاس، دفعها مستجيباً لخشيته من أنه إذا توقف فربما لن يستطيع بعدها العودة إلى المسير. لن يتوقف إلا عند مأوى.

تمتم وهو يمضي: «القوة.. القوة يا ربي.. قوِّني». لمّا التفت يمينه رأى أشجار أثل متناثرة في منخفض وراء السهل، ليست على الطريق، غير أنها ليست بعيدة، ولا يوجد سواها شيء يمكنه الاحتماء به. تقف متباعدة عن بعضها على أرض طامنة ومنبسطة، تنزلق الأرض من ورائها متأنية قليلاً حتى تتوقف عند وادٍ يندلق آخره بأخدود له جرفان هائلان.

إنها مكان لن يعوّض، ستحمله واحدة منها عن الذئب إذا ما جاءه، وانهزم نازلاً يحمل تعبه، مطرقاً يرزح بأساه.

تراءت له الأشجار مثْلَ مَرَدَةٍ هَرِمين، طِوالٍ وكثيفِي الشَّعر، مَرَدَةٍ مُرهَقِين ومائِلين بإحباط. اختار أقرب واحدة له، متطرّفة عن البقية، عالية ومتفرِّعة إلى خمسة فروع، في الأصل جذعان مرتفعان سبعَ أذرع عن الأرض، ينقسم الجذع الأول إلى فرعين، ويميل الثاني بثلاثة. تأمّل ضخامة ما نفر من جذورها على الأرض، وكثافة أوراقها الخضراء الطويلة والدقيقة. لا يعرف من أين تأتيها القدرة على قهر الجدب ومغالبة الجفاف.

قال مسقطاً الفروة والزوّادة: «هذه هي المأوى»، وأسقط معهما جسده.

ارتمى لبرهة وجيزة، ثم جلس يبحث عن صخر يدقّ عليه

أوراق الجثجاث، كان الصخر كثيراً من حوله، اختار أقرب صخرتين، لم تكونا الأفضل لكنهما الأقرب ليده، بحيث أزاح مؤخرته حتى حصل عليهما. واحدة حادة كبيرة والأخرى أصغر، دق أوراق الجثجاث الخضراء الصغيرة، أمعن في دقها حتى انسحقت وصارت كالعجين المتماسك، عض كُمَّ ثوبه ومزَّقه بالخنجر ثم فتقه إلى نصفين، سكب ماء القربة على جرحه، وبأصابعه المرتعشة، راح يمسح خطوط الجروح الأربعة بالعصارة الخضراء اللزجة، وخزته أول الأمر، ثم سار بها جيئة وذهاباً عليها بهدوء حتى أحس بأنه يدغدغها، وبعد ذلك لف الجروح بمُزقة كُمّه، محاذراً الضغط عليها.

رنا إلى الأشجار، كأنها زرعت من أجله قبل مئة سنة، مثلها مثل الجحر الذي بدا له حُفِر خصيصاً له، شعر بأن الله يرعاه ويحميه.

تسلق الجذع بمشقة، آخذاً معه - على عاتقه - الزوادة والفروة. فلتت رجله في المرة الأولى، ثم حمل على نفسه وثبّتها وقفز حتى أمسك بنتوء كما لو كان مكان فرع مقطوع، وبعد أن تعثر قليلاً، بسبب ضعفه، استطاع أن يرفع جسمه ويُكمل إلى أن وصل فوق أوسط الفروع الثلاثة التي تميل جهة المشرق. ما إن وصل حتى نزل المطر رذاذاً متسارعاً، غشيته سكينة من أن الغيوم كانت تنتظره يصل حتى تهطل، وقال متنهداً: «يا ربي لك الشكر والثناء».

أخرج ما تبقى معه من سيقان الشيح، شذّب الأوراق ومضغها ثم ابتلعها.

التحف الفروة، البرد لا يطاق، أوصاله ترتعش.

تمدد على الفرع شاعراً أنّ كل شيء محسوب حتى يصل إلى هنا. وضع خده على يده فوق الزوادة، تاركاً قدميه تتهدلان للأسفل.

أحسّ بأن الراحة والنوم بالدنيا كلها.. ونام.

الفصل الثالث

في عمق النوم رفرف في أذنه صوتٌ صعَد بوعيه إلى تخطي حدود اليقظة الرفيعة، صوت يشدو على وزن المسحوب الأبيات ذاتها:

كم ذيب من لحم الرياجيل شبعان
أصبح صباحاته وأمسى لياليه
الذيب يا ذيبان لا جاك جوعان
عشّه ترى ابن آدم لزوم يعشيه

الذيب يا ذيبان
.. يا ذيبان
يا ذيبان..

كانت الصحراء ترقد ملتحفة ليلاً ثقيلاً، وقد كفّت الغيوم، وتوقّف الهواء، وراح السكون يمتص المكان إلّا من صوت قطرات المطر التي تقطر من الأغصان على الأرض المبلولة.

سرعان ما أحس ذيبان ببلل الفروة، ما إن لظم عقله خيط

الواقع، وبرطوبة ملابسه تحتها، وشعر بجسمه بارداً، وبأن رجليه المتهدلتين متورّمتا القدمين.

يا ذيبان..

أدرك أنّ الصوت ليس في الحلم. فتح عينيه المثقلتين بالسقم والنعاس. رأى العالم ضباباً أسودَ موشّى بألوان شاحبة تندمج في بعضها، حتى اعتادت عيناه الظلام، وتشكّل المشهد الذي أمامه.

رأى أول ما رأى ظلّ جذع الشجرة يسقط متخافتاً على القاع محاطاً بنور شاحب يهتزّ ويخفُت. لم يستجب ذهنه المكدود والمرهق أول الأمر، أخذ يحدّق بالأرض قليلاً حتى انتبه إلى أنّ ثمة ناراً خلف الشجرة، قفز صوت الشدو إلى سمعه:

سقت القدم بفجوج ربي وسبحان
ربي يسوق الرزق يمّي برجليه

وعى أنه ليس في حلم، جلس ناهضاً بظهره وألقى نظرة وراءه، فوجد ناراً مشتعلة بحطب متوسط الحجم تحيطها أحجار على شكل دائرة.

تساءل في نفسه: «مَن أشعل هذه النار؟».

فجأة ناداه الصوت: «يا ذيبان».

فزع وارتعد فكّه. بدت له نبرة الصوت واثقة من أنه ذيبان،

بل وعلى معرفة تامة بتفاصيل حياته. بحث في مجال ضوء النار عن المنادي فلم يجده.

«يا ذيبان».

عاوده الصوت ثانية لكنه هذه المرة كان يأتيه متردداً من كلّ جانب كصدى بعيد. اضطربت وتسارعت أنفاسه وجعل ينبش بعينيه سريعاً الظلمة المتراكمة حوله.

«يا ذيبان».

أتاه مرة أخرى من الجانب الأيمن للشجرة.

«ننعم، نعم.. أنت م.. من أنت؟» تعثر لسانه!

«هه» ضحك الصوت، وقال: «لا يهم من أنا، ولا من أنت».

ارتعدت فرائص ذيبان.. الصوت غير طبيعي، يشبه شحذ معدن بمعدن، وفي نهايته رنّة، نبرته بشرية إلّا أن نطقه للكلمات مريب، كما لو كانت شفتاه ثقيلتين.

وتذكّر أن أشجار الأثل مرتع من مراتع الجن، فازداد هلعه.

طن الصوت في أذنه اليسرى: «لا تخف يا ذيبان لن أؤذيك».

تمزّق صوته من الرعب، بالكاد استطاع أن يتمتم بصعوبة: «م م مممن أنت؟».

«ليس ثمة أنت أو أنا، لا يوجد سوى نحن.. يا ذيبان».

أوشكت أنفاسه تمزّق صدره من شدة اضطرابها، وكانت روحه تنقبض وتنبسط معها.

«ك ك كككيف عرفت اس اس اسمي؟».

«هه. . أنت قلت إنك ذيبان».

نشف ريقه بغتة حتى صار كبئر ناضبة، غار لعابه، فابتلع يباس حلقه بغير ما نفع.

رغم أنّ الظلام مستحكم في كلّ ما هو خارج مجال ضوء النار الخجل، غير أنه لم يكن ظلاماً تاماً، بحيث كان ذيبان قادراً على رؤية الخيط الأسود الرفيع الذي يلحم رقعة السماء الحالكة والغائمة مع رقعة الأرض المظلمة.

دسّ يده في الزوادة وأخرج الخنجر، أمسكه جيداً شاداً قبضته عليه كما لو أنه سيفلت منه، وأخذته لحظة صمت، توقف الصوت فيها عن الكلام، إلى الشك في أنه سمع شيئاً، ورجع يتهم الحرارة اللعينة التي سلقت مخّه، لم يكد يكمل اتهامه حتى اهتز ضوء النار وتماوج ظلّ شيء أمامه مؤكداً أن أحداً آخر معه.

فكّر: «أنا أتوهّم، أتوهّم، هذا لا يحدث».

رجع الصوت:

«ألا تذكر، ألم تقُل لي عند الجحر بأنك ذيبان ابن هياب فارس الرجال؟».

كما لو أن ذيبان سقط من السماء إلى حفرة بلا قاع، تخبّط في أفكاره. . هذا صوت حقيقي. . أيمكن أن يكون هذا الصوت. . أيمكن أن يكون. . صوت الذئب؟

«نعم أنا الذئب يا ذيبان» قال الصوت وهو يلتف حول أذنيه مثل أفعى اصطادت فأراً، «لكن لا تخف، ما حدث عند الجحر انتهى، ليس بيني وبينك عداء الآن، وأقسم لك بحياتي لن أؤذيك».

لم يستوعب ذيبان كلّ هذا الخرَف، ما يحدث الآن أكبر من كلّ ما سمعه من العجائز، راح يصارع شكّاً انفجر في رأسه بأنّ ما يجري أمامه هو من مسّ الجن، سيجنّ، نعم سيجنّ، وستلعب عليه الجن أولاً ثم تكسر عظامه إذا ملّت منه وتلهو بمفاصله كما تفعل عادة في مَن يقع بين قرني جنونها.

وبغتة خرج أمامه الذئب من قلب الظلام إلى مجال ضوء النار الواهن، وقف شعر رأسه لدى رؤيته، غصّت رئته في الهواء وشهق كما لو أنه يعيد روحه التي تنتزع من بدنه، تناول رأسه بين يديه لئلا يفرّ عقله.. الذي يشاهده الآن لا ينتمي إلى هذا العالم.. بل لا ينتمي إلى أيّ عالم كان أو يمكن أن يكون.

اقترب الذئب يمشي على قدميه مثلما يمشي البشر، حتى وقف تحت الشجرة وأخذ ينظر إلى ذيبان مباشرة رافعاً رأسه إلى الأعلى.

رغم عطبه، استطاع عقله العمل قليلاً وعرفه: «إنه هو»، الذئب الذي رآه في الحلم، وقد رسم ضوء النار ظله على الأرض بشكل لم يرَ ذيبان أرعب منه في حياته، حتى خنجر حميدان الحادّ ذلك اليوم لم يكن أكثر هلعاً في عينه من ظلّ ذئب يقف كهيئة الرجال، ولا حتى قصص الجن ترتقي لما يراه الآن.

أطلق صرخة مروّعة حركت السكون الجاثم على صدر المكان:

«يا ربااااااه».

غطت غشاوة بيضاء عينيه وقامت تتكاثف، انزلق معها بدوار عنيف يجر رأسه يميناً وشمالاً، كاد يفلت الجذع ويميل ساقطاً

على الأرض، بيدَ أنه تماسك في اللحظة الأخيرة مدركاً أن وقوعه يعني الموت في أبشع صورة.

زرق الذئب إلى الظلام بلمحة بصر، تاركاً أفاعي الرعب تتلوى في رأس ذيبان، وجسده يرتعش كجسد محتضِر، وقد راحت عيناه تنفرجان، وعضلات وجهه تشتد وتشتد أكثر فأكثر مع كلّ لحظة مريعة تنفث مع مرورها إحدى الأفاعي سموم الهلع في رأسه.

«لا، لا. . أأأأنا أأأأحلم» قال بصوت متقطع «أأأنا م م مريض وأأأحلم»، لمس رأس الخنجر بإبهامه، حاول أن يغرسه، فوجد أنّ الألم حقيقي، وأكمل، يتخبط في تكذيب ما رآه، وعيناه ترفرفان في الحلكة المتفشية حوله: «نعم أحلم، ورأس أمي أحلم، الحرارة بلغت رأسي وهذه خيالاتها، أنا مَن أشعل النار، مَن يشعل النار غيري؟ لا أحد، نعم أنا أحلم أحلم، أنا مريض فقط، سأصحو بعد قليل، سأصحو».

«لا تخف» همس الصوت أمامه مباشرة، فزّ ذيبان من مكانه زحافاً بمؤخرته إلى الوراء بحركة لم تكن وفق إرادته فأوشك أن يهوي لولا أن أدركت يده الجذع الآخر واستعاد ثباته.

«أقسم لك برب الجبال والسماء إنني لن أؤذيك»، وأكمل الصوت بنبرة شجن «أنا ذئب وحيد فقط، ألست مثلي وحيداً؟!».

«مم ما ما ماذا تريد؟» تأتأ ذيبان.

«أريد أن. .».

خرج الذئب من الظلام مرة أخرى يمشي بتؤدة إلى مجال الضوء، وأكمل: «أريد أن أكون (خويك) هذه الليلة فقط».

كان وجهه ودوداً، ملامح بشرية مسالمة تماهت مع وجه ذئب، لكنها لم تخفّف حدة الخوف في جوف ذيبان.

«أُقسم لك بالرب إنني لا أحمل لك شراً».

توقف عقل ذيبان عن التفكير لحظة، استرجع بها كلّ تجاربه التي مرّ بها، كل علم تعلّمه، كلّ قصة سمعها، كلّ حلم رآه، كلّ فكرة شغلته، ليحصن عقله بكلّ ما عرفه طيلة حياته من هجوم هذا الجنون الشرس الذي يريد بعقله الخواء التام.

أنْ يتكلم ذئب ليس بالأمر المعقول، فكّر، وراح يبحث عن شيء يجمع به فوضى أفكاره ويعينه على الفهم، لم تبرح الرعدة فكّه ولا القشعريرة جسده ولا الخوف نفسه. لفّ ببصره حول الذئب متفحصاً، وجده ذئباً ملعوناً، أنيابه ظاهرة من جانبي مقدمة فمه، وظلُّه على الأرض ظلُّ ذئب يقف على قدميه، الجنّ ليس لها ظلال، ولا تستطيع التحوّل إلى شكل ذئب.

سأل نفسه: «هذا هو الحلم الذي حلمتُه ليلة أمس، فهل أنا أحلم، هل أنا في الجحر حتى الآن؟».

ضغط بإصبعه على رأس الخنجر ثانية فلسعه الألم.

- «لا تنزل، إذا كنت خائفاً فلا بأس من..».

قاطعه ذيبان:

- «ك ك ككيف.. ذئب يتكلم؟».

وبلهجة ممازحة أجابه الذئب:

- «يخرج صوته ويحرك لسانه». ضحك وأكمل: «هل قال أحد إن الذئاب لا تتكلم؟».

- «لا ولكن لم. . لم يحدث أن أحداً. . أحداً. . ذكر. . ذكر أحد أنه كلّم ذئباً».

- «إذا لم يكلم أحد ذئباً من قبل فهذا لا يعني أنه لا يوجد ذئب يتكلم».

أثقل الصمت المكان إلّا من قطرات المطر التي تنقط من أوراق الشجرة وتخفّف من وطأته. استمر ذيبان يعرج في تفكيره: «ذئب يتكلم! ويمشي مثل البشر أيضاً! ويريد أن نكون أصدقاء لليلة. . إما أنني أحلم، أو أن حرارتي أحرقت عقلي. . وإما أن الجن مسّت رأسي، وإما. . وإما أن الذي أمامي حقيقة».

تنبّه إلى وخز جرح كتفه، فمسحه من فوق الخرقة مسحاً لطيفاً.

لم يسبق أنْ راوده مثل هذا الإحساس الذي يدفعه الآن إلى اليقين بأن الشمس لن تشرق إلى الأبد، كأن رحى الزمن، من هول ما رأى، توقفت عن الدوران، وشعر بأنه سيحبس ها هنا، في هذا المكان المدلهمّ مع ذئب في هيئة رجل إلى اليوم الذي يحاسب به الله الناس، أو إلى أن يستيقظ من الحياة.

انعطف عقله إلى منحى آخر من التفكير: «ربما هذا هو الموت». . شهق ووضع يده على قلبه، «قد أكون مِتّ»، واستمر يحدّث نفسه وهو يملي الذئب بكامل بصره: «وهذا هو الموت الذي أخاف منه».

تمهل قليلاً يحمس الأفكار في رأسه المتّقد: «هل مت في الجحر؟ آه، لم أخرج منه حتى الآن».

شعر برغبة حارة ومتدفقة بالبكاء.

سأل الذئب:

«هل مُتّ؟».

نظر الذئب إليه كأنه لم يفهم شيئاً.

فأعاد ذيبان القول:

«أجب.. هل.. هل أنا ميت؟».

نشج أنفه، وبصوت خافت مرتعش تابع:

- «هل فارقت الحياة؟ هيا قل لي، لا تخفِ شيئاً، أنا أعرف أنني.. أنني مت، لكن كيف قل لي.. في الجحر؟.. هل مت في الجحر، هل أنت هنا لأنك أنت مَن سبّب لي الموت؟ قل، لا تسكت».

- «حسناً.. في الحقيقة لا أعرف». قال الذئب واضعاً ذيبان في دوامة من الحيرة، وأكمل: «لا أعرف إن كنا الآن، أنا وأنت، في الحياة أو في الموت، ليس هناك دليل قاطع على هذا، كل ما أستطيع أن أقوله لك إننا موجودان معاً في هذه الليلة تحت هذه الشجرة، غير هذا لا يسعني إثبات شيء، لكن، لكي تطمئن، أنت خرجت من الجحر صباح أمس».

ومضى الذئب، يفرك يديه ببعضهما، إلى جوار النار:

«بدأ الليل يبرد، تعال نتدفأ».

جعل ذيبان يبكي وينشج بصوت خافت وهو يعيد التفكير بكل ما جرى محاولاً فهم حقيقة ما يحدث، هل ما يحدث له الآن لأنه جبان؟ هل يصنع الجبنُ ذئاباً تتكلم وتمشي كهيئة البشر؟.. لا.. لكن أن يرى المرء ذئباً فهذا يدل على أمرين، الأول أنه يرى،

والثاني أن ذئباً أمامه.. أما أن يرى الذئب الذي أمامه يتكلم فهذا أمر ثالث يدل على أنه جُنّ.. ما الجنون غير رؤية أشياء لم تحدث. الذي يجري شيء لا يمكن تصديقه، ذئب يقول كلاماً عربياً بفصاحة تنم عن زمن طويل من الكلام.. هل هو شيطان الشعر يتلاعب بعقله أم هو ميت فعلاً؟

استسلم مدركاً أن التصديق بوجود ذئب يتكلم أفضل من الشك بأنه لا يزال حياً، إذ بدا له أن الموت هو ألّا يعرف المرء هل هو حي أم ميت. قرر أنه سيعيش الحدث بكل لحظاته مهما كانت مجنونة: «ما يحدث أمامي حقيقة».

بحث، بينما الذئب جالس يضيف الحطب إلى النار، عن سبب حدوث هذا معه بالذات: «لماذا لم أسمع بأنه حدث مع غيري؟»، وخالجه شعور فاتر بالزهو، فربما تشتهر قصته مع الذئب مثل قصة الذويبي مع الجنّية أو أشهر، وقد تزيد العجائز عليها من الأعاجيب ما يجعل الليالي تقصر بلهفة سمّارها. «مخاوي الذيب» تخيل ما سيكون لقبه لو أن قصته عُرِفت.. وسيقولون لبعضهم: مَن يقص علينا قصة «ذيبان خوي الذيب»؟ لكن ليس معه أحد ليحكي عنه القصة، ولا تكون القصة على لسان صاحبها إلا وكذّبها الناس، أو شكّوا فيها على الأقل.

رمى الذئب بنظرة مختلفة، وقال مطمئناً نفسه التي لم يكفّ الخوف عن عضّها: «لن يصلني طالما أنني هنا، وإن حاول يمكنّي طعنه».

تجرأ وسأل:

«ما اسمك؟».

كان الذئب يوليه ظهره، ورغم أنه أجابه دون أن يستدير، إلا أنّ صوته ملأ المكان:

«اسمي ذئب».

تحرّكت ظلاله على الأرض كما لو كان تأميناً على ما قال.

فاستفهم ذيبان: «أعرف أنك ذئب، لكن ما اسمك؟».

فقال الذئب وهو يحرك الحطب بغصن أثلة رفيع:

«اسمي ذئب.. كل الذئاب اسمها ذئب».

ثم التفت إلى ذيبان بوجه ودود:

- «أرى أن روعك قد هدأ، تعال، انزل ودعنا نتسامر يا صديقي قبل أن يشيب الليل.. لا تخف مني، قطعت عهداً بعدم إيذائك».

- «لن أنزل» قال ذيبان شاداً أصابعه على الخنجر.

- «حسناً، كما تريد، إن كنت مرتاحاً فوق فسآتيك».

وبحركة متأنيّة، قام الذئب من مكانه، وتسلّق الشجرة بسهولة مَنْ تسلَّقها آلاف المرات، وراح ذيبان يطلق الصيحات: «ماذا تريد مني؟».. «ابتعد».. «سأقتلك».. «معي خنجر».. «انظر»، وراح جسمه كله ينتفض رعباً.

وعندما وصل الذئب إليه صاح ذيبان صيحته الأخيرة: «يا ربي رباااه»، ثم غرق بصره بضباب أبيض كثيف، واحتلّ سمعَه طنينٌ مزعجٌ.

* * *

عندما تكشّف الضباب عن عينيه رويداً رويداً وأخذت الرؤية تتحسن، كان وجه الذئب يتضح مع تحسنها قريباً من وجهه،

انتفض ذيبان لمّا استوعب أنه مسجّى بجانب النار وليس بينه وبين الذئب ما يمنعه من أن يصبح لُقمة. زحف إلى أن التصق بجذع الشجرة، يتبعه الذئب، ثم صاح باكياً: «اتركني.. أرجوك لا تقتلني.. ماذا تريد مني؟».

اقترب الذئب منه وقال بلهجة معاتبة: «لا تخف، لا تخف، أقسمت لك لن أؤذيك، ما بك؟ أوشكت أن تسقط من فوق الشجرة، ولو لم أمسك بك لسقطت وانكسرتْ رقبتك ومتّ.. ذيبان، لو كنت أريد قتلك لما انتظرتك حتى تصحو من إغماءتك، أليس في كل هذا دليلاً على أنني لا أريد إيذاءك، اترك الخوف الآن وتعال».

تضخّم قلب ذيبان من قوة النبض حتى احتلّ كل صدره وضيّق أنفاسه، وراح الرمل يتراكم داخل رأسه ويتراكم إلى أن دفن عقله.

رجع الذئب إلى جوار النار، تاركاً ذيبان منغرزاً في جنونه يتمتم: «لا.. أنا أحلم.. حلم حلم».

بعد لحظات، ناداه الذئب بأن يعود إلى رشده ويكف عن تمتماته الخرقاء مذكراً إياه بأنه لو كان يريد إيذاءه لما انتظر كل هذه المدة، ولكن ذيبان لم يبرح الخوفُ يغمر رأسه بالمزيد من الرمل حتى ثقل ووضعه بين يديه مسنداً كتفيه إلى الشجرة تاركاً بقية جسده ممدداً على الأرض المبلولة.

أعاد الذئب قسَمَه برب الجبال والسماء وزاد عليه بقسمه بِرب الدم، وذكر له بأن القسم بِرب الدم لا يسلم ذئب ينقضه من

الموت قتلاً، وأفهمه بأنه ذئب وليس ضبعاً خسيساً ليخون المواثيق، واستمرّ يهدّئ من روعه حتى نطق ذيبان أخيراً:

«إذن لن تقتلني».

فأجابه الذئب بابتسامة عطف:

«لا يا ذيبان لن أقتلك».

اقترب ذيبان من النار وهو ينظر إلى الذئب الجالس أمامه بهيئة شيخ قبيلة رؤوف، لم يكن البطء في خطواته من الحيطة، إذ إن شعوره بأنه عاجز عن الهرب في حلكة هذا الليل المطبقة وأنه عاجز حتى عن أن يدافع عن نفسه إذا ما أراده هذا الذئب بسوء، جعله يستسلم لقدره الذي لا بد أنه سيكون لمصلحته في النهاية. لن يتركه الله الذي حباه بالمنع منذ طُرِد مِن أخواله، بل من قبل أن يطرد، رعاية الله له كانت حاضرة في لحظات حياته كافة، حتى عندما بال على نفسه، البول كان خيراً له، لو لم يبل لما عاش حتى هذه اللحظة، ولم يرَ ذئباً يتكلم.

جلس قبالة الذئب، وكانت ألسنة اللهب القصيرة تفصل بينهما وتبعث ضوءاً دافئاً يسقط بلطف على جسد الذئب المُشعِر، ويضيف إلى سماحة ملامحه سمة لين الطبع، ومن تحتها توهّج الجمر بشكل يفتن بالتأمل.

تفرّس ذيبان الذئب، كان لا يزال في شكٍّ منه، وجهه المُشعِر، بوز فكّه المدبب، ناباه البارزان، جبينه الفسيح المسطح، ثم أذناه الصغيرتان المنتبهتان، ومِن عندِهما تنساب فروة رأسه إلى رقبته المفتولة إلى بقية الجسد القوي والمتسلّط، كتفاه، شَعْر صدره الأشهب، يداه وهما تحرثان الجمرات بغصن

الشجرة، مخالبه الخنجرية، فخذاه المقرفصتان، طرف ذيله من خلفه. أكّد في نفسه «ذئب، ذئب على هيئة رجل».

شعر بأنه سبق له أن رأى هذا المنظر، ليس في حلم، بل عاشه، أجل عاشه مرة قبل الآن، لكن أين وكيف ومتى!! وداخله إحساس مفاجئ بالطمأنينة، فانفجر صدره بسعال أزاح حصاة الخوف الجاثمة عليه، ثم رجع يتملى الأعجوبة التي أمامه.

نظر الذئب إليه بودّ، وقال باسماً مع هزة لطيفة من رأسه:

«نعم، الذئاب تتكلم وتقف كالبشر ويمكنها أن تركب الإبل».

راحت عينا ذيبان تغزلان في محيط ضوء النار، ثم عادتا مرة أخرى إلى الذئب، أوشك أن يسأله عمّا يريد منه، فقال الذئب كما لو كان مطّلعاً على ما يجول في ذهن ذيبان:

«تسائِل نفسك: ماذا يريد مني هذا الذئب الغريب؟ حسناً.. لا أريد منك شيئاً، كل ما هنالك أنني أعجبت بصبرك وجلدك، فقلت ليلة نقضيها معاً بالسمر، وفي الصباح يذهب كلّ واحد منا في طريقه.. ألا تريد أن تتحدث مع ذئب؟».

تلعثم ذيبان قبل أن يقول:

«ما أدراني أنك.. أنك.. حقيقة؟».

رنّت ضحكت الذئب من كلّ الاتجاهات وقال:

«ما أدراك أن هذه النار حقيقة؟».

وباحتراس مدّ ذيبان يده إلى النار فأعادها بسرعة بعدما أوشك أن يحرق سبابته، وراح الذئب يضحك، وجعل ذيبان ينفض يده من الألم.

«الْمُسْني لتعرف أنني حقيقة»، قال الذئب باسماً.

بلل ذيبان مكان لذع النار سبابته بلعابه وهو ينظر إلى الذئب بعين حذرة، ثم مدّ يده، باتجاهه، بتردد كأنه يمدّها للنار مرة أخرى، وكانت ابتسامة الودّ، على وجه الذئب، تتودّد أكثر، وقبل أن يلمسه تخلى عن الفكرة وأرجع يده. فقال الذئب:

- «الآن أنت تصدق أنني حقيقة».

- «نعم، ولكن كيف تستطيع أن تتكلم مثل البشر؟».

- «لماذا لا تكون أنت من يستطيع أن يتكلم مثل الذئاب؟».

- «لأن كلامك عربي».

- «بل لأن عقلك حوّل كلامي إلى العربية».

- «لا أفهم ماذا تعني؟».

- «حسناً». أشاح الذئب بيده، كما لو كان يتجنب نقاشاً لن يستطيع ذيبان فهمه «نحن نفهم بعضنا في النهاية، كما قلت لك قبل قليل، إذا لم يسبق أن سمعت عن ذئب يتكلم فهذا لا يدل على أنه لا يوجد ذئب يتكلم».

لمّت حلكة الليل الكون كله حول النار، لم يكن في مقدور ذيبان رؤية شيء غير النار والذئب والشجرة، وكل شيء عدا ذلك بدا له، من شدّة الظلام، غير موجود في الأصل؛ لكنه، رغم ذلك، لم يشكَّ في أنّ حرارة النار بإصبعه السبابة حقيقة، وتعني أن ما يحدث أمامه لا يمكن أن يكون وهماً، مقنعاً نفسه بأن الوهم قد يضحك على البصر، ويمكنه الكذب على السمع بسهولة، لكنه لا يستطيع حرق إصبع.

نفخ على إصبعه بعد أن لعقه، ثم فتح اللفافة التي على كتفه ليرى على ضوء النار حالة جرحه.

وجده هادئاً، تلمع خطوطه الأربعة على الضوء، وحين همّ بإعادة لفّه قام الذئب قائلاً:

«دعني أساعدك».

لم يمتنع ذيبان، لم يخف، وشعر بغرابة أنه لم يخف وهو يرى مخالب الذئب التي مزّقت كتفه تقترب منه، حادّة ومعقوفة مثل سيوف؛ مسّت رائحة الذئب أنفه، تشبه رائحة وبر ناقة مبلول، وبمخلبين من كلّ يد، قبض الذئب أطراف اللفافة وأدارها برفق على زند ذيبان، وهكذا حتى ربط الطرفين في النهاية، ثم رجع إلى مكانه، وقال وهو ينظر إلى النار:

«لا أستطيع الاعتذار عمّا حصل».

لم يقل ذيبان الذي يدور في رأسه، لكن الذئب، كأنه يسمع الصوت الداخلي لذيبان، قال:

«لأن الاعتذار يكون عن الخطأ وأنا لم أخطئ».

تساءل ذيبان في نفسه: «كيف لم يخطئ؟».

هزّ الذئب رأسه:

«نعم لم أخطئ».

«مزّق كتفي وكاد يقتلني والآن يقول لم يخطئ» قال ذيبان في نفسه.

«ما حدث ليس خطأ، أنا ذئب وقمت بدوري كذئب يأكل ما يصطاد، وأنت قمت بدورك، دافعت عن نفسك حتى كدت تقتلني لو أصابتني تلك الصخرة، وعضضت يدي».

شعر ذيبان بارتعاش الخوف يعود وفي طريقه ليزلزل قلبه، ليس لأن الذئب يعتبر ما حدث شيئاً عادياً، بل لأنه يعرف ما يجول في نفسه، فسأله، في محاولة لاستعادة طمأنينته:

«هل تعرف ما..؟».

قاطعه الذئب: «نعم أعرف ما تحدّث به نفسك».

اهتزّ ذيبان ورجف فكّه، فتمتم يقول:

«أنت جنّي ولست..».

قاطعة الذئب: «بل أنا ذئب حقيقي.. ما بك ذيبان؟.. صدّقت أنني ذئب حقيقي يتكلم، وهو أمر صعب التصديق، ولم تصدق أنني أسمع صوت حديثك مع نفسك وهو أمر تفعله كلّ المخلوقات التي تسمّونها حيوانات.. أقدّر خوفك، لكن تذكّر، لو كنت أريد بك شراً لفعلته عندما كنت منصرعاً قبل قليل.. اطمئنّ الآن.. اطمئن».

استتبّ نبض ذيبان عمّا كان عليه قبل لحظة، «هو على حق، لو أراد أن يأكلني لأكلني منذ قليل»، آبَ استسلامه للّحظة الراهنة، ولِما سيحدث بعدها.

قال الذئب، بعد برهة من الصمت:

«نحن الذئاب نحب أن نصادق البشر، ليلة واحدة في العمر، في هذه الليلة أريد أن تكون صديقي، فإذا جاء الصباح، إذا جاء الصباح ذيبان نعود كما كنا، ذئب جائع وبشر خائف، هل تفهم ما أعني؟ هذه الليلة هي ليلتي الوحيدة في العمر ذيبان.. أرجوك، كصديق قديم كن، ودعنا نتحدث عن كل شيء».

«هل ستقتلني في الصباح؟» سأله ذيبان دون خوف، فأجاب الذئب:

«بالتأكيد لا، سأرحل مع شروق الشمس، لكن إذا تواجهنا في الأنحاء، فثِقْ أنني لن أتردد في أكلك، من الآن إلى قبل شروق الشمس، أنت صديقي الذي لن أتوانى في تقديم عمري فداءه».

ابتلع ذيبان ريقه، وفكّر: «هذه القصة لن تصدَّق، بل إن رواها شيخ قبيلة مكلل بالوقار فسيصبح أضحوكة». فوافقه الذئب:

«لهذا لا أحد ممن تحدّث مع الذئاب قال قصته».

هزّ ذيبان رأسه متفهماً.

سأله الذئب:

- «أخبرني الآن، لا أحد يسافر بمفرده بلا دابة. . هل أنت هارب؟».

- «لا».

- «ماذا إذن؟».

- «أنت تعرف الذي أعرفه فلماذا أقول؟».

- «كلا، أنا أعرف ما يجول في ذهنك فقط».

- «حسناً. . أنا مطرود».

- «مطرود. . فعلت شيئاً مخزياً إذن».

- «لا لا».

- «قل لي ماذا حدث يا صديقي؟».

اختلجت رغبة الحديث في قلب ذيبان، فجأة شعر بأنه يجب

أن يلقي على أحد ما حِمْله. خفض صوته، ملقياً بصره على توهج الجمر الهادئ:

- «عمّاذا أحدِّثك؟ أنا..»، ابتلع ريقه وأكمل: «أنا رجل أريد السلامة، أريد العيش بهدوء، لكن.. الأمور.. الأمور دائماً تحدث خلاف ما أريد».

- «كلنا نريد السلامة والأمور تحدث دائماً خلاف ما نريد»، رفع الذئب كتفيه بإيماءة بشرية وأنزلهما متابعاً: «هذا ليس خزياً».

- «قتلتُ» قال ذيبان كما لو كان يتأوّه.

- «ولماذا قتلتَ؟».

شعر ذيبان بأن وجهه يتصلب، وقوة ما تتفجر من داخله وهو يفكر بسؤال الذئب حول لماذا قتل، فقال بصوت صخرة تتفتت:

- «بسبب ضحكة غالية».

- «في الأمر أنثى».

- «لأنها ضحكت عليّ».

- «مَنْ غالية؟».

- «لم يكن لها أن تضحك عليّ».

- «أخبرْني أولاً مَنْ غالية؟».

راح ذيبان يتحدث بانفعال، كأنه يطرح ثقلاً عن كاهله دون أن يعير أسئلة الذئب انتباهاً:

- «لو كنتُ قوياً لما ضحكَتْ ولما قتلتُ متعب».

- «تمهل تمهل، لست أفهم شيئاً مما تقوله، حتى تفكيرك الآن ليس شيئاً يمكنني فهمه، اهدأ.. اهدأ وأخبرني، من غالية؟ ولماذا ضحكت؟ وكيف قتلت متعب هذا؟».

ضم ذيبان ركبتيه إلى صدره مريحاً حنكه على اليمنى منهما، غاب في برهة صمت يتأمل توهج الجمر من تحت الرماد، لم يقاطعه الذئب بطلب الحديث، تشاغل بحكّ غصن الشجرة، الذي استخدمه لحرث الجمرات، بمخالبه.

لم يلبث ذيبان صامتاً إلى أن قرفص بعد حين وتنهّد بشجن: «سأخبرك».

وضع الذئب الغصن جانباً، وبدا على وجهه الاستعداد الكامل للتأثر بما سيقوله ذيبان مهما كان تافهاً، وشجّعه: «نحن هنا لتخبرني عنك ولأخبرك عني، وتأكد، تأكد ذيبان مهما كانت حكاياتنا صعبة ومريرة.. مهما كانت غرابتها فلن يصدقها أحد إذا نقلناها عن بعضنا».

راح ذيبان يتذكّر ويقصّ على الذئب ما حدث، أخبره عن غالية، الفتاة الجميلة التي يتصارع الشبان أيهم يفوز بنظرة منها، وعندما تذكّر وجهها الفاتن وعينيها اللتين هما كعيني غزال غافل، رأى الذئب مغمضاً عينيه كأنه يراها كما يراها هو في ذهنه، بيضاء مقليّة بزيت الشمس.

حدّثه عن رقصة صباح العيد، وما طرأ بقلبه بعدئذٍ، وقال له كيف كان أول حديث بينهما عن الشعر، عن أول موعد وصفه بحلم ليلة دافئة، أخبره عن كل شيء في قلبه لغالية، كما لو كان يتحدّث عن أشياء خالدة لن تزول بموته. وكان الذئب يستمع طوال ذلك بانتباه بالغ، مما شجّع ذيبان على الاسترسال مستشعراً أن الحديث يزيل المتاعب عن قلبه، وعندما جاء عند ذكر حادثة قتله لمتعب، سكت، وأخذ يبتلع ريقه عدة مرات متتالية، كأن

الكلمات كبُرت وغصّت في بلعومه فلا يستطيع لفظها ولا ابتلاعها، نظر إلى الذئب وسأله:

- «هل قتلت بشراً من قبل؟».

هز الذئب رأسه بنعم.

- «كم مرة؟».

- «مرتين».

- «أخبرني كيف حدثتا؟».

نفخ الذئب صدره بالهواء، ثم أفرغه وهو يهزّ رأسه وعيناه تتقلبان على الجمر:

- «حسناً.. وقع ذلك قبل خمس سنوات، الأول كان شيخاً كبير السن، والثاني كانت امرأة».

- «هلّا أخبرتني بكلّ ما حدث، أريد أن أعرف، قبل أن أقصّ عليك كيف قتلتُه، هل الموت الذي أحسسته يطمر روحي يوم رأيت متعب يموت بيدي يخصني وحدي أم أنه إحساس يقتل كل مخلوق تسبّب بقتل آدمي؟».

- «لا تقِسْ طبعي بطبعك، القتل لدينا مطلبٌ عند الحاجة أو الخوف، ولكن دعني أخبرك بما حدث.. نحن الذئاب لا نقترب من البشر إلا إذا أوشك الجوع يُزهِق أرواحنا، ويومئذٍ كانت خمسة أيام قد انسلخت دون أن أطعم شيئاً، طوت الصحراء عنّي الرزق، كنت أسير هائماً على بطني في الصحراء في ليل خاوٍ من أمل إيجاد ما أقيم فيه صلبي، وكان بدر منتصف الشهر يقلقني في السماء، ريثما سمعت سعال رجل يأتي من بعيد، عرفت أنه رجل

كبير في السن، هرولت، إلى أن اقتربت من خيام، ثم سمعت سعاله مرة ثانية فتتبعت الصوت حتى وصلت خيمة صغيرة ومهمَلة تتطرف وحدها عن بقية الخيام، عندما دخلت أبحث عنه، وجدته جالساً ينظر إليّ، كان متجعد الوجه، هدل حاجبيه الزمنُ، لم يبدُ عليه الرعب عندما اقتربت منه، فشككت أنه يرى، تروّيت أبحث في المكان، حتى اطمأننت أنه خالٍ تماماً ويمكنني أن أقتلع رقبته قبل أن يخرج صوته، لكن حسيس أقدام مباغت منعني من ذلك، فلذتُ وراء الخيمة قبل أن أرى سواد امرأة تدخل عليه بوعاء، ما سمعتُه بعد ذلك أصابني بدوار، سمعت ضرب الوعاء بالأرض، وصوت المرأة تقول له: كُلْ أكلَ عظامك الدود. تلت ذلك برهةٌ من الصمت قطعتها المرأة تقول: متى تموت وأرتاح منك؟ أضجرتني يا شيخ الشيطان، كل يوم أنظف أوساخك لأنني زوجة ابنك والناس يعيبون عليّ إنْ تركتُك، براز عليك وعلى ابنك.. وبراز على الناس معكم.. ما هذا الهمّ الذي أنا فيه؟ وسمعت صوت ضربة أخرى، ثم بلغني صوت نشيج مكتوم، عرفت منه أن الشيخ يبكي، ثم سمعته يسألها: هل يعلم ما تفعلين بي؟ فأجابته بنبره مستهزئة: نعم يعلم وإلا لماذا لم يعد يأتيك هو بنفسه، مت وارتح وأرحنا. بعد ذلك بقليل خرجت المزأة وتركت الشيخ على بكائه المكتوم. صدّقني ذيبان، كان قلبي يتمزق، أنت تفكر الآن: كيف يتمزق قلب ذئب لا يعرف الرحمة؟ أقول لك نعم يتمزق، الحزن موجود في كل ذي روح، لا يختلف في الحزن قلب ذئب عن قلب شاه عن قلب بشر، والرحمة ليست خاصة بالبشر دون غيرهم، كل مخلوق زرع في روحه من الرحمة ما يلائم طبيعته.

حزنت من أجل الشيخ، وتساءلت حينها عن اللحظة التي أعيشها كذئب، كيف لو عشتها كما عاشها هذا الشيخ لو كنت بشراً، غبطت نفسي على أن الذئاب تقتل نفسها قبل أن يصيبها الكِبَر، أو تهب لحمها لبعضها الآخر، أمّا ما حدث للشيخ فهو أمر أطلعني على مدى شراسة البشر.

ليست شراسة الجوارح شراسة يا ذيبان، بل شراسة الشعور هي الشراسة.

عندما دخلت عليه مجدداً، وجدته ينظر إليّ، فعرفت أنه ليس أعمى، كانت نظرة راجية، وكلانا فقط، أنا وهو، يعرف ماذا تعني، فكّرت أن أتركه وأمضي باحثاً عن رزقٍ غيره أمنع فيه انسلال روحي، لكنني سمعته يفكر: وأنت يا ذئب أيضاً تريد لي العذاب؟ رجعت إليه بعيني قبل أن أخرج من الخيمة، كنت أعرف أنه يريدني أن أقتله وأريحه من البؤس الذي هو فيه، أن أضع حدّاً للهرم الذي أذلّه. عدت مقترباً منه حتى بان حاجباه المتهدلان أبيضا الشعر، ولحيته البيضاء الشعثاء، وعيناه اللتان يطلّ من خلفهما تعبُ عمْر طويل، تردّدت قليلاً أتطلع إلى ضعفه وقلة حيلته اللتين لم تخفيا بسالة طبعه التي يخبر عنها أَنَفُه الرفيع المتعالي، فقال لي ناطقاً: بسرعة قبل أن يأتي أحد. فاستعجلني بأن هجم عليّ ببقايا قوة واهنة، ما إن التقمت رقبته منتزعاً حنجرته حتى مات بأسرع ممّا توقعت، كما لو أنه يعينني على موته، وبينما كانت روحه تخرج من جسده، رأيت حياته كاملة، كما عرضت في ذهنه، حياة عزيزة، أتلفها الهرم وطول العمر الذي رُدَّ إلى أرذله. ومما رأيت، ابنه، زوج المرأة، يلعب صغيراً على

حجره.. لم آكل لحمه، لكنني ذقت في دمه طعم حصان يركض وسيوف تتقارع».

- «والمرأة التي قتلتها، هل كانت زوجة ابنه؟».

- «نعم، لم يفارقني صوت بكاء الشيخ، كان في أذني ينشج طيلة خمسين ليلة، شيء من حزنه نفذ إلى روحي، حتى جاء نهار كنت مختبئاً فيه تحت صخرة قريبة من بئر، فسمعت صوتاً عرفته، صوت زوجة ابنه، كان زاعقاً ومتسلطاً، فقلت آن لبكاء الشيخ أن يسكت، فقمت، في وضح النهار، وهو وقت لا تبدأ الذئاب به الهجوم عادة، وتتبعت الصوت، إلى أن عثرت عليها مع قومها راحلين، تنتصف الركب، على ناقة سوداء، تلوم رجلاً - أحسبه زوجها - على شيء لم أتبيّنه، أصبحت الدنيا كلها ظلاماً في عيني، إلا دائرة، على شكل عين الشيخ الدامعة، تحيطها من دون العالم؛ فهجمت ما في وسعي لا ألوي رقبتي على أحد، سمعت صيحات الرجال: جاك الذيب.. جاك الذيب، وصراخ النساء: الذيب الذيب.. كانت هي وحدها صامتة من هول الفزع، في عينيها شتيمة لحظِّها الذي جعل الذئب يختارها دون غيرها من القوم، قفزت وجررتها من ساقها وطرحتها عن الناقة، ثم قضمت رقبتها كما فعلتُ مع الشيخ، فلاحت ذكريات حياتها كبروق، بحثتُ من بينها عن ذكرى الشيخ عندما كان يبكي في الخيمة، وعندما رأيت صورته ذاوياً على فراشه بصقت دمها وهربت تلاحقني سنان السهام والرماح».

سكت الذئب هنيهة أخذ بها نفساً عميقاً وزفرة، نظر إلى ذيبان ثم أضاف:

- «تفكّر الآن بأنهما لم يفعلا شيئاً يستحق القتل، نعم، لكن هذا حسب طبيعتكم أنتم، عند الذئاب القتل جزء من طبيعتنا».

- «على الأقل المرأة لم تكن تستحق القتل».

- «أوافقك، لكن الذئب لا يكون ذئباً إذا فكّر بصواب رأيه أو خطئه، قتلتها وانتهى الأمر».

واستلقى على جنبه الأيمن متوسداً كفّ يده قبالة ذيبان:

«أخبرني أنت الآن، كيف قتلت متعب؟».

أخذ الليل يبرد، وقد نعست الجمرات تحت غطاء الرماد الرقيق، فارتكز ذيبان ملتقطاً الغصن، وجعل يحرث الموقد موقظاً التوهج الأحمر الدافئ، وهو يفكر من أين يبدأ الحديث؛ فقال، وهو يراكم الجمرات فوق بعضها:

«كنت قادماً للغدير ضحى»، وضع الغصن بجانب الموقد ورجع للجلوس: «معي ربابتي، أريد أن أجرّ عليها لغالية القصيدة التي قلتها في جمالها. انتظرتها تحت ظلّ شجرة سدر، اعتدنا الجلوس تحتها، أُليّن قوس الربابة قبل العزف، حتى أتت مع بنات قومها ترفل بثوب أخضر مرقط بأحمر، تمشي مثل مهرة عنيدة، كان هناك أيضا فتيات من قوم أخوالي، وأخريات من قوم الغصاب يتطرفن الغدير، وقفت ملوحاً لغالية بيدي، فنبّهتها إحداهن مشيرة إلى أنني هناك في انتظارها، أتتني وعلى وجهها ابتسامة لعوب، وعندما اقتربت قالت: كيف فعل شيطانك أمس؟ أجبتها بأنه ألقى في خلَدي القصيدة التي تريدينها. جلسنا، وقالت

هيا قلها، فطلبت منها أن تستريح أولاً من عناء المسير كي تسمعها بشكل أفضل، لكنها استعجلتني قائلة: أنا مرتاحة الآن، هيّا قلها. فلما قلت لها أول أربعة أبيات قاطعتني: مهلاً أريد أن أنادي بنات عمي ليسمعن ماذا قلت فيَّ، وأريدك أن تشدو بها على الربابة. وراحت دون أن تستمع لما كنت أطلبه منها بأنني لا أريد أن يسمعها أحد قبلها. التمّت الفتيات حولي كالعادة، فقالت غالية مسرورة: هيا اعزف. ترددتُ شيئاً ما، ليس حياء، أنا معتاد على أن أعزف للفتيات، لكن هذه القصيدة ليست ككل ما سبق، كانت تشبه روحي، ولم أحب أن يشاركني أحد غيرها في روحي، فأعادت غالية الطلب بصوت غنج: هيا أسمعنا يا ذيبان. لم أقوَ على ردها أمام بنات عمها، فعزفت وتغنيت بالقصيدة».

طلب الذئب:

- «أسمعني ماذا قلت بها؟».

- «أبشر:

تراك بيضا ونور الشمس

ما جابك إلا على طاريك

ساعة غمستي الغدير...»

قاطعه: «اشدُ بها».

تنحنح ذيبان فارداً حنجرته، وشدا:

«تراك بيضا ونور الشمس

ما جابك إلا على طاريك

ساعة غمستي الغدير بغمس

زينك توضّا الغدير بفيك

يـا وردة خـدودك مـن الـلـمـس
حـمـرا ولـون الـشـفـق يـكـفـيك
يا شعرك الأسود من الـهـمس
نـادى الـهـوا فـيـه ويـلـبـيـك
يا خاطري عنك خاطر عمس
ودي أجيـلـك قبـل مـا أجيـك
يـا غـالـيـة بـالـشـهـور الـخـمـس
الـمـاضـيـة عـشـت مـيـت فـيـك
العشق حامس ضلوعي حمس
لـو أكـشـف الـقـلـب وأورّيـك
وشـلـون لـيـلـه طـويـل ودمـس
والـشـوق طـمّـه عـلـى واديـك
لو في يدي نور هذي الشمس
لأمـدهـا كـيـف مـا يـرضـيـك

وسلامتك».

- «آه يا ذيبان آه، في صوتك خرير ماء للأرواح العطشى»، قال الذئب وقد كان يسمع طوال ذلك ويهزهز رأسه يميناً وشمالاً طرباً بصوت ذيبان الشجي: «حسناً. . ماذا قالت بعدما سمعت القصيدة؟».

- «لم تقل شيئاً، أو لم يعطنا متعب فرصة لنقول، أتى متغطرساً كالعادة يستعرض وسامته ومعه أحد أبناء عمه، وكنت قد سمعت أنه من المتيّمين بجمال غالية، عصفَت الغيرة في صدره حينما رآني أعزف لغالية ومَن معها من الفتيات، فأقبل وبيده عصا

يجلد بها الهواء، وعندما اقترب قال متهكّماً: كوبان، ما الذي تفعله هنا؟ عرفت من لهجته أنه يريد أن يريهن قوّته عليّ، تجاهلته، فقال بحدّة: ألا تسمع يا كوبان أم تريدني أن أنزع أذنيك من رأسك؟ فقمت أريد أن أترك المكان عند هذا الحدّ قبل أن يحرجني أكثر أو قبل أن يصل إلى النيل منّي باليد، ما إن وقفت حتى جلدني بالعصا على فخذي، وتراجعت الفتيات، صرخت عليه: عيب عليك عيب أنا أكبر منك. فقال وهو يلتفت إلى غالية: وحمارنا أكبر مني أيضاً. ضحك ابن عمه ضحكة فاقعة، وسمعت ضحكات مكتومة فرّت على استحياء من بعض الفتيات، طالعت غالية فلم أجد عليها الاستياء ممّا فعله متعب، ولم أكد أدير ظهري خارجاً من الغدير حتى أمسكني من ياقتي وقال: هل أنت حمار؟. . إذا كلّمتك لا تدر ظهرك لي. أبعدتُ يده عني بقوة وأعطيته ظهري مكملاً طريقي، لكنه أمسكني مرة أخرى من ياقتي: هل أنت حمار؟ هل تريدني أن أجعلك حماراً؟ فدفعته، ثم جلدني بالعصا على كتفي، عندها اجتاحني شعور حاد بأن عليّ أن أفعل شيئاً وإلا فلن آتي إلى الغدير مرة أخرى، ولن تجلس معي الفتيات ثانية إلى الأبد، فصرخت: اذهب عني أو سأجعلك تندم. فجلدني مرة ثالثة، كان عليّ أن أضربه منذ البداية، بل كان عليّ أن أضربه منذ عرفته، لكن. . ».

صمت كأن كلمة حادّة انغرست في بلعومه.

فقال الذئب مهوِّناً:

- «لا عليك، كلنا مررنا بمواقف خذلنا أنفسنا فيها. . أكمل».

- «كان علي أن أضربه منذ البداية، كان علي أن أعرف كيف أؤذي الآخرين، لم تنفعني رغبتي بالسلامة، لكنني.. لكنني تركته وانصرفت فجلدني الرابعة، على.. على مؤخرتي، فضحكت الفتيات بصوت عالٍ هذه المرة، لم تكن غالية تضحك معهن، لكنّ وجهها بدا لي منبسطاً، انغرس شعوري، بأنني لن أدخل الغدير ما حييت، في قلبي، بدا لي أنني لن آتي غديراً ما على وجه البسيطة إلى أن أموت، فعدتُ إليه، قلت في نفسي سأضربه وليفعل بعدها ما يشاء، فاقتربتُ منه وقذفت إليه قبضتي بكل اندفاعي، تفاداها وسقطتُ على الأرض..».

صمت ذيبان يبكي، فمسح عينيه بيده، وتابع باكياً:

- «سقطت.. سقطت وطارت ربابتي مني.. وعندما.. عندما هممت بالنهوض جلس على ظهري، وقال: هيا يا حماري تحرّك. هنا التقطتْ أذني صوت ضحكة غالية من بين كل الأصوات، ورأت عيني وجهها الضاحك.. كانت تضحك.. تضحك معهن.. كأن لم يكن بيننا مودة، بل كأنها تحمل لي حقداً دفيناً وحانت لحظة التشفي، لم أصدق عيني، تركت متعب فوق ظهري ورحت أبحث عن أي شيء فيها يقول غير الذي أراه، ولو إيماءة يد أو هزة رأس أجادل بها فؤادي، لكنها تركتني وحيداً أحمل ثقل حقيقة ضحكتها على قلبي الموجوع. كنت أموت، بل صدقني لقد متّ، يموت الرجل في اللحظة التي يرى نفسه فيها مهاناً أمام امرأة يحبها، أقسم لك يا ذئب إنني كنت أشعر بأن نصلاً يمزق جوفي ويشق طريقه إلى خافقي، كنت أموت بأبشع طريقة يمكن أن يعيش بها المرء، انقلبتُ على ظهري، وقبل أن

أبعد متعب برجلي قلت لنفسي: من الآن لا داعي للحياة عندي، وقبل أن أنهض أمسكتْ يدي بصخرة لها طرف حاد، وسمعت صوتاً ما يصرخ بداخلي: فلتنقلع السلامة التي تبحث عنها. كان ظهره أمامي، واقفاً يسألهن من تريد أن تركب على حماره، قفزت عالياً وهَوَيتُ على رأسه بالصخرة..».

مسح ذيبان أنفه بكُمِّ ثوبه ثم راح يكمل بصوت حاد:

- «خرّ من فوره، فقفزت على ظهره، كما فعل بي، ضارباً أمَّ رأسه أصيح: من هو الحمار الآن، من هو الحمار الآن، من هو الحمار الآن؟ عندما أطفأت غضبي انتبهتُ إلى أن رأسه انفلق، وأن جسده همد دون حراك، وأن غالية.. غالية هربت مع الفتيات، وابن عمه أيضاً هرب، هرب يخبر قومه بأنني قتلت متعب، وهربت أنا معهم، نعم كنت أهرب معهم منّي، وأينما ولّيت نفسي في اتجاه لقيتُني، فأغيّره هارباً مني إلى اتجاه آخر كنت أعثر عليّ فيه أيضاً وأهرب، لا تستغرب أنني أتحدث عن نفسي كأنني انقسمت قسمين، هذا ما كنت أشعر به، كنت منقسماً بين أنا النادم وأنا المنتقم، حتى عرفت بعد أن غابت شمس ذلك اليوم أنني أكثر شيء لا أستطيع مواجهته في الدنيا، فاستسلمت عائداً إلى خيمة خالي سلطان، وبعد ذلك ثار أخوه حميدان يريد دمَه مني، فاحتميتُ بأخوالي، وبعد ذلك بدأت الغارات وقتل فيها عدد ليس بالقليل، منهم اثنان من أبناء خالي، وقتل من قوم الغصاب كذلك قرابة العدد، إلى أن جاؤوا قبل أسبوع، واجتمعوا مع أخوالي طلباً لنهاية القتال قبل أن يغير عليهم قوم نهّابة يريدون أنعامهم، فثأرت مني زوجة خالي لمقتل ابنيها بأن اقترحت حلاً

ينهي الخصام، هو أن أبرز لحميدان، وهكذا برزت له وانتهى الأمر».

- «هل قتلته؟».

- «لا».

- «كيف انتهى النزال؟».

شعر ذيبان بصدره ينوء تحت جبل، متذكراً اللحظة التي بال فيها على حياته خوفاً من الموت، فقال: «انتهى بالذي تراني عليه الآن».

مدّة من الصمت تجاذبها ذيبان والذئب، عرف ذيبان، من نظرات الذئب أنه قرأ ما جرى ما إن تذكّره.

قطع الذئب الصمت:

- «هل تعرف ما العظَمة؟».

- «أن تفعل شيئاً عظيماً».

- «لا» هز الذئب رأسه: «العظمة أن تستمر في فعل الأشياء العظيمة، لأنها لو كانت في أن تفعل شيئاً عظيماً لكان كلّ الخلق عظماء لأنهم لا بد قد فعلوا على الأقل شيئاً واحداً عظيماً في حياتهم، من هنا ذيبان فإن الوضاعة ليس في أن تأتي بفعل وضيع، وإنما في أن تستمر في إتيانه.. بلتُ على نفسك.. حسناً وماذا في ذلك؟ كل ابن أنثى يبول، هل تبول على نفسك دائماً في كل معترك؟.. طبعاً لا.. هنا أقول لك إن ما فعلته لا يعدو أن يكون فعلاً عادياً حدث في وضع غير عادي، أكدارك ليست من الفعل ذاته، بل لأنه وقع في وقت ليس وقته ورغماً عنك.. أنا لا أعرف ما مقاييسكم في المخازي، لكن دعني أخبرك بشيء،

الأخطاء.. العيوب.. المساوئ.. المخازي.. سمِّها ما شئت، ليست سوى حدود وضعها البشر للمنافسة، ليصبح الذين نجحوا في اجتنابها أفضل من الذين واقعوها..».

قاطعه ذيبان مندهشاً:

- «هذا ما أقوله دائماً».

- «نحن متفقان إذن.. الحياة ذيبان أوسع من أن يضيق صدرك من أجل خطأ فعلته، بل أرى أنك لم تخطئ، الفعل حدث رغماً عنك، وقد يحدث رغماً عن أي أحد منهم لو كان في مكانك».

- «لكنه لا يكون إلا من الخوف المعيب».

- «فليكُن، ما العيب في أن يخاف مخلوق من الموت؟».

- «يدل على أنه ليس عزيز نفس».

- «عزة النفس تكمن في النفس ذاتها».

- «مع ذلك أرى أنه ليس من الحسَن فعله».

- «فيك خصلة من الكلاب.. نعم لا تنظر إليّ هكذا.. فيك خصلة من الكلاب؛ وهي أنها تلوم نفسها إذا أخطأت، وتظلّ تلوم نفسها حتى ترضى على نفسها الذل.. نحن الذئاب لكي نكون ذئاباً علينا أولاً ألا نأسف على أي خطأ اقترفناه، وألّا نندم على زلة بدرت منا، أتعرف لماذا ذيبان؟ لأنه يحق لنا أن نخطئ ولا يحقّ لأحد أن يحاسبنا، هل عرفت لماذا الذئب لا يخنع؟ اختَر.. هل تريد أن تكون ذئباً أم كلباً؟».

- «ذئب».

- «رائع، دائماً كن أنت الذي تريد، لا أنت الذي يريدون،

وهذا يتطلب القليل من الشجاعة والكثير من اللامبالاة.. لكي تكون ذئباً يا ذيبان يجب أن تشعر بأنك ذئب.. سلطان الشعور.. الشعور قبل كلّ شيء وبعد كلّ شيء.. هذا العالم يا ذيبان ليس سوى حقيقة ما تشعر به.. كلّ كائن يكون ما يشعر أنه يكون، أنت تكون أنت الحقيقي، وكلّ ما سواك يكون أنت غير الحقيقي، لأنك أنت من تجعل العالم على هذا الشكل أو ذاك، العالم ليس سواك بنحوٍ لا يمكن فصل رؤيتك له عن شعورك به، هو شكلك الآخر، شكل شعورك، الأمر ليس لغزاً، بل هو حلّ لكل لغز يخطر على بالك، وإلا فقل لي لماذا تشعر بأن الدنيا تضيق إذا ضاق صدرك؟ لماذا يسوَدُّ النهار إذا حزنت؟ ما السبب في كل هذا؟.. أليس الشعور؟.. أحياناً يكون لوخزة شوكةٍ مقدار ألم ضربة مخلب دامية نفسه، الفرق ليس في اختلافهما، وإنما في الشعور الذي يُحدث الفرق، شعورك هو الذي يجعل من الشوكة مخلباً ومن المخلب شوكة، هو الذي يستطيع جعلك ذئباً أو إنساناً أو شجرة، لا أقصد أن يكون شكلك شكل شجرة، بل معنى الشجرة، والمعنى هو الهدف من وراء خلق الشجرة على هذا الشكل.. هل فهمت الآن؟ هذه أمثلة بسيطة، قس عليها أنت.. الأشياء ليست كما تراها، بل كما تشعر بها، لأنها لو كانت كما نراها لكانت النار أجمل مكان يمكن أن يقضي المخلوق به الحياة، متوهجة ودافئة، لكنها نار، تشعر بها تحرق وهذا معناها الذي يجعل منها ناراً، وهذا الحرق هو الذي يجعل من بعض الأماكن معنى مثل معنى النار حتى إنك لتشعر بأنها ستشويك لو مكثت بها طويلاً».

- «لكنّ الشعور أحياناً يخدع».

- «نعم»، قال الذئب متحمساً: «وإذا خدعنا لا نعرف أنه يخدع فننخدع له، وهذا هو السرّ في سلطان الشعور، تريد أن تكون قوياً.. اشعر بأنك قويٌّ تكُنْ، تريد أن تصبح ذئباً اشعر بأنك ذئب إلى أن تصبح ذئباً في المعنى لا في الشكل، هذه هي الحيلة التي يمكنك بها استحواذ الدنيا، قل كلّ شيء لي وحدي، وستشعر بأنه ما من شيء إلا هو لك».

سكتا ينظر كلاهما إلى الآخر بسكون، وقد تمدَّد العجب في مخ ذيبان لما سمعه من الذئب للتو وفغر له فاه مستغرباً، شعر بأن الذئب يعرف كل شيء في الدنيا.

جلس الذئب على ركبتيه وأضاف قاطعاً الصمت:

- «أتعرف يا ذيبان.. إذا كان الخلود أمراً مستحيلاً لكل مخلوق فمن الحماقة طلب السلامة في حياة نعلم أنها ستنتهي بالموت.. كيف نخاف الموت وهو الشيء الوحيد الذي يجعل من الحياة حياة؟.. قصة الشيخ الذي ذكرتُها لك قبل قليل، أليس طول العمر مضنياً وأنت ترى قوتك تنحسر وتصبح عالة؟ لَمَ الخوف إذن عليها من حياة؟ عمري الآن سبع عشرة سنة، وأشعر بأنني اكتفيت من العيش، قمت بما علي القيام به كذئب طيلة عمري، لولا الجوع ولذة الفوز بالفرائس لدكّ الملل عظامي، لا أتعلق بالحياة، بل أقلل من أهميتها بأن أستطيع التخلي عنها متى أريد، وأحياها بالطريقة التي تلائم طبعي وتتماشى مع رغباتي دون أن يرغمني أحد أو يضع لي ما يجب أن أفعله أو ما يلزمني تجنّبه، هي حياتي ومن حقي أن أضع لها الشروط التي تناسبني،

لا أعرف كيف أشرح لك ما هي بالنسبة إلى الذئاب، فلنقل إننا نعتقد بأنها شيء وُجِدَ لكيلا يبقى، بدأ لينتهي، وأنت ذيبان، أنت ولدت لتموت، لا أعني أنها سخيفة، بل أريد ألّا تعطيها أكثر من شأنها، صدّقني يا صديق الليلة عندما يطول بك العمر ستعرف أنها مثل حلم لن يطولك منه سوى ومضة شعور بالفرح أو شرارة شعور بالحزن، وسيأتي اليوم الذي تنادي السماء به روحك، وعندها سينزل عليك مَلَك مجنّح وستنطلق معه إلى الأعلى وتترك كل شيء وراءك».

هتف ذيبان متحمِّساً:

- «حسناً. . أريد أن أصبح ذئباً».
- «لا تقل أريد أن أكون ذئباً. . اجزم. . قل: أنا ذئب».
- «أنا ذئب».
- «بصوت أعلى».

رفع ذيبان صوته:

- «أنا ذئب».

صدح الذئب:

- «أعلى».

اعتدل ذيبان وفتح طاقة صدره: «أنا ذئب»، شعر بشرارة حماسة ارتمت في جوفه، فأعاد صارخاً: «أنا ذئب». ضج صوته في الجهات ورجع إليه: «أنا ذئب»، وضع كفيه بجانب فمه وصرخ: «أنا ذئب». انتشى وتوقدت همّته، فوقف نافخاً رئتيه وانفجر: «أنا ذئب». . دار ناحية الشجرة وأعاد: «أنا ذئب».

وقف الذئب بجانبه وصاح: «ذيبان ذئب»، فالتفّ صوته قوياً

مزلزلاً، ودار حولهما مصدقاً نداء ذيبان، وأنشأ يدور ويدور ويأتي ذيبان من كل مكان: «ذيبان ذئب». . «ذيبان ذئب». . «ذيبان ذئب».

انتحى الذئب عن الموقد وصفّق بيديه وهو يرفع قدَماً في مكانه ثم يضرب بها الأرض ويرفع الأخرى وينشد:

ذيبان يا سقم الحريب
لا تحسب لموتك حساب

قام الذئب يردّد البيت ويرقص عليه، ففهم ذيبان سريعاً أنها دعوة للرقص، فوقف قبالته وأنشد معه وهو يصفق بيديه مع الذئب على الإيقاع نفسه ويبادل مثله رفع قدميه:

ذيبان يا سقم الحريب
لا تحسب لموتك حساب

وراح يتناوب مع الذئب إعادة البيت ثلاثاً حتى قال الذئب:

إما حياتك مثل ذيب
وإلا تغالبك الكلاب

وفعل كما فعل في البيت الأول، لكن بشكل أقوى، إلى أن شعر بأنه يرتفع عن الأرض مع كلّ ضربة تضربها قدمه عليها:

الذيب فعله ما يخيب
لا عدّوا الأنياب ناب

تأجّج ذيبان بالبيت بينما الذئب يقترب منه حتى وقفا كتفاً بكتف:

«أووووووو».

عوى الذئب، وسرّع الإيقاع رافعاً صوته، وزاد أن جعل

يتمايل ويقفز رافساً الأرض محرّكاً رأسه يميناً وشمالاً، فجاراه ذيبان:

اقنب(*) إذا تسمع قنيب
واضرب إذا شفت الضراب

أحس ذيبان وهو يصرخ بالبيت بأنه يحفره في جوفه، يمكّنه من رسن عقله لينقاد إليه، فعوى متوحّداً مع الذئب:

«أوووووو».

ومع البيت الأخير شعر بأنّ هذه الرقصة المنهكة تسلخه من جلده القديم، وبأنّ جلد ذئب يتلبّسه، وأن مخالبَ انبثّت من خلف أظفاره بيدَ أنه لم يرَ جلداً أو مخلباً، بل كان شعوراً حقيقياً أنه أصبح ذئباً بالمعنى لا بالشكل:

إمّا حياتك تستطيب
وإلّا ترى آخرتك تراب

دارا حول الموقد وهما يكرّران البيت الأخير معاً بصوت واحد، وبضربات عنيفة على الأرض، وما إنْ شعر ذيبان بقواه تخبو حتى توقف الذئب واستلقى متعباً على الأرض، فخار ذيبان على ظهره من فوره وراح ينظر لاهثاً إلى الذئب بجانبه.

راحة غامرة تمدّدت في قلبه تجاه الذئب، وهو يلهث معه، شعر كما لو أنه أحد أبناء عمّه، أو أقرب، كأخ، كأحد الذين يهمّهم أمره ويحرصون على سلامته، لم يكن لديه أدنى شك بأن

(*) قنيب: عواء.

الذئب يقف في صفّه ويريد له أن يكون أفضل، بل ويسعى إلى ذلك، بدت له ملامح الذئب أخويّة أكثر من كونها ملامح حيوان، فقال له بعد أن هدأت أنفاسه:

«أنت هبة من الله، أرسلك لي، الله وحده أرسلك».

ضحك الذئب وهو مستلقٍ، وضحك ذيبان معه. مرّت لحظات تأمَّل ذيبان فيها الحياة سريعاً، لا شيء يحدُث مصادفة، كلّ حركة وسكنة مدبّرة ومن ورائها مقصد، كيف يجمع الله كلّ هذا الكون ويحرّكه بكل ما فيه بحيث إنّ كل حركة من شيء تكون سبباً لسكون شيء آخر، تتداخل وتتعقد الحكايات، أمّه.. أبوه.. غالية.. حميدان.. زوجة خاله.. متعب.. كلهم كانوا سبباً ليكون هنا مع الذئب، وما سيأتي غداً سيكون الذئب سببه، وما يأتي بعد غد يكون الغد الذي كان سببه الذئب سببه، وهكذا يتجاذب العالم الأسباب فوق سنام راحلة الحياة وهي تسير بهم إلى نهاياتهم.

«الآن أريد أن أنام» قال الذئب: «لم يبقَ على الصبح إلا القليل».

تمدّد ذيبان متثائباً:

«أنا أيضاً أريد أن أنام».

اعتدل الذئب وقال دون أن ينظر إلى ذيبان:

«لا تنَمْ هنا ذيبان، نمْ مكانك فوق الشجرة، إذا طلعت الشمس ينتهي العهد الذي بيننا، و.. سآكلك حينها أو تقتلني».

مسّ الحزن حلْق ذيبان بلوعةٍ، سأله:

«هل، هل سنلتقي بعدها؟».

وبنبرة حنونة أجابه:

«لا.. لن نلتقي يا ذيبان، لكننا سنكون معاً».

«كيف سنكون معاً؟».

«في الشعور» نظر إليه متبسماً وكرر: «في الشعور».

قام ذيبان على مهل، فوجد الذئب واقفاً أمامه يمدّ يده لمصافحته، صافحه لامساً مخالبه الحادة المعقوفة، ثم راح يتسلق الشجرة إلى أن وصل مكان مرقده حيث وجد الفروة معلّقة على الجذع والزوّادة في مكانها.

«وضعتُ الخنجر في الزوّادة عندما أنزلتك من فوق، تأكد أنه هناك، ستحتاج إليه غداً يا صديقي إذا التقينا».

ألقى ذيبان مبتسماً نظرة على الذئب فوجده مستلقياً على جنبه كما يستلقي رجل لا يهاب الصعاب.

كيف يشقّ الحزن طريقه إليه على فراق ذئب لم يعرفه إلّا قبل قليل؟ لن يبكي، نعم لن يبكي، لأن الذئاب لا تبكي، بل سيشعر به فقط، وهذا كافٍ لفض غمامة الحزن عن عينه.

كان التعب يثقل كاهله، فوضع رأسه على جذع الشجرة متوسِّداً الزوادة، واستسلم إلى دوامة سوداء سحبته إلى عمق النوم، ونام.

أيقظه صفير أم سالم المتواصل، فتح عينيه على مهل، ثم رفع صدره عن الجذع متأوّهاً بتعب، شاعراً بأن صخرة كبيرة كُسِرت على ظهره.

راح الأفق ينفَجُّ أمامه بزرقة الفجر الشاحبة، تطلّع يميناً ويساراً بسفرة الأرض المفتوحة وهي تنداح موسعة الأفق، وقد أنشأ النور لحظةً وراء لحظة بالانبلاج، مادّاً فيضه الكاشف ومظهِراً المزيد ممّا غمسته ظلمة الليل من الأرض. اجتذبته عملية الإصباح السرمدية كأنه يراها للتو، لبث ساكناً يُرسل عينيه في تخلُّق أشياء الدنيا مبصراً القدرة العظيمة التي تأتي بالنور وتذهب بالظلام. تثاءب، وتحرّك مباعداً بين ركبتيه، فانزاح بمؤخرته إلى الوراء ثم تمطّى رافعاً ذراعه السليمة إلى فوق وشدّها إلى الوراء عاصراً عضلات جسده. كأن حياة جديدة دبّت في بدنه، مزيلة حمى ليلة البارحة عنه تماماً، كما لو أنه أبدل جسد رجل غيره بجسده.

انتبه إلى شيء تحرّك تحته، أسقط نظره، فوقعت عيناه على الذئب مقعياً مؤخرته على الأرض، عن يساره تحت الشجرة، وناصباً يديه. فزع.. واقشعرّ جلده.. ضمّ الفرع إلى فخذيه حتى شعر بألم، «كان هنا طوال الليل» قال في نفسه مستشعراً رحمة الرب بهذه الشجرة، فمن دونها كان سينهار على الأرض بلا شك، وعندها قد.. «يا ربي رباه».

نظر إليه الذئب بعينيه الصفراوين وأخرج لساناً وردياً رفيع الحواف لعقَ به يده عدة مرات ثم أدار وجهه جهة المشرق.

كان وجهه واضحاً، يحمل أشدّ علامات القسوة قسوة. تطلّعه ذيبان مفكراً: كيف استطعتُ النجاة من هذا المخلوق المرعب يوم أمس؟ لقد ولجَ حتى في أحلامي ليستدرجني.

استغرب في نفسه حلم ليلة البارحة: «ما أغربه من حلم!.. كان له ملمس الحقيقة وأثرها».

لبث يفكر، محدّقاً بالذئب، بتفاصيل الحلم التي كانت حاضرة بوضوح كأنها ذكرى حدثت ليلة أمس، إلى درجة يمكنه معها إعادة الحديث الذي دار بينه وبين الذئب، بل لا تزال الأبيات التي رقصا عليها ناهضة في رأسه مع إيقاعها الراقص. حلم مغاير، ليس كغشاوة الأحلام التي سرعان ما تتبدد عن الذهن حين يستيقظ المرء.. هذا الحلم وقع على نحوٍ لا يمكن التحقّق منه.. لم لا تكون رؤيا، فكَّر، أو.. أو أي شيء من هذا النوع الذي يتخطّى به المرء حدود العالم الذي نراه إلى عالم لا نراه، كعالم الجن مثلاً، كثيرون حلموا أحلاماً تحققت بعد أيام مطابقة

ما رأوه بكل التفاصيل.. أو، همس: «هو فَرِي(*)»، أجل قد يكون الفَرِي: «دخل الهواء برأسي»، لو كانت الذئاب تتكلم لكانت الحياة شيئاً آخر غير الذي نعرفه الآن.

استنشق بعمق رائحة الهواء المثقل برائحة المطر والخزامى والنفل، رائحة قوية، أكّدت له عافية أنفه.

بركة ماء كبيرة افترشت الأرض عن يمينه، مغطية بعض عروق نبات الرمث التي كانت قليلة ومبعثرة، وبالكاد ظهرت منها رؤوس أزهار النوير الصفراء. بدت له الأشجار أكثر ممّا رآها بالأمس.

«ما هذا السفر الذي رأيت فيه هذه الغرائب؟» قال بصوت هامس، أسقط الفروة المبلولة عنه على الجذع، ثم سحب الزوادة وأخرج منها القربة، شرب قليلاً، ثم عاد إلى الزوّادة بيده، فلم يجد غير خمس تمرات ضامرات وقطعة أقط صغيرة، بسطها في كفه متسائلاً عن كيفية إكماله بقية المسافة بهذا الفتات، فرأى أن يأكل نصفه الآن والبقية بعد زوال الشمس، آخذاً بحسبانه أنه سيصل القرية في العصر إذا ما سارع الخُطى، وهناك سيجد طعاماً يقيم أوَده؛ أكل أول تمرتين بلقمة واحدة، لكنه شعر بأنه جائع بصورةٍ لهَبٍ يحرِق معدته، لم يُطق إلّا أن يأكل تمرتين أخريين،

(*) اسم لمرض يسبب الجنون، يظن البدو أنه فتحة بالرأس أدخلت الهواء إلى العقل وأفسدته.

ثم يتبعهما التمرة الخامسة وفوقها قطعة الأقط «الآن نفد زادي، يجب عليّ احتمال المسافة»، لفظ نوى التمر في يده، وشرب فماً آخر من القربة، ثم هزّها ليقيس ماءها، وجده قليلاً «سأملؤها من البركة».

لم يمضِ كثير من الوقت ريثما لفحت الشمس جدائلها الشقراء في السماء، لمس ذيبان في صدره انشراحة الرضا عند رؤيتها ترتفع ارتفاعها الدائم البطيء، ها هو يوم جديد، عمر جديد. فكّ الرباط عن كتفه فوجده متورّماً حول الجروح، وكانت العصارة الخضراء مختلطة بسواد الدم المتخثر على رأس الجروح، طمأنه أنّ التهابه أخفّ ممّا كان عليه بالأمس. أعاد ربط جرحه، وسكن يتطلع بأشعة الشمس النقية تنسكب على جسد الأرض الفاتن.

تحرّك الذئب من تحته، عندما اكتمل الإشراق، حركات متتالية. طالعه، فإذا به يبتعد بضع خطوات عن الشجرة، ويتوقف ملتفتاً إليه بنظرة وداعٍ، كما شعر بها ذيبان، مليئة بكلمات لا تُقال، وكان في عينيه لمعان دموع الفراق، دموع نقية لا يمكن أن تكون غيرها، وكان وجه الذئب قد انبسط وزالت عنه مسحة القسوة لمسحة حزن. اعترى ذيبان، وهو ينظر إلى تَيْنِكَ العينين المأخوذتين من الرحيل، وذلك الوجه المشفق، إحساسٌ مدلهم بأنّ حلمه حقيقي على نحو لا يمكن معه استخدام العقل وحده لتفسيره، هذه النظرة وما تحمله لا تأتي إلا من صديق عزيز همَّ

بفراق لا رجعة فيه، «لكنه مجرد حلم»، ضغط على عقله: «ثم ما أدراني بنظرات الذئاب؟».

أكمل الذئب طريقَه وذيلُه يتمايل مع خطواته. تابعه ذيبان طويلاً، فبلغت حلْقه غصة غريبة، غصّة من المكان الذي يصدر منه البكاء، ازدردها وراح يتابع الذئب حتى اختفى في أخدود الوادي وغار معه سحيقاً.

انتظر مراقباً المكان خشية أن يعود الذئب في حيلة أخرى من حيله الماكرة، مديراً التفكير حول الشعور الرقيق الذي اكتنفه بالحزن من فراق الذئب. وبعد قليل، حينما استوثق الأمان، نزل.

شعر بألم في فخذيه، لمّا انتصبت قدماه على القاع، من طول قبضهما على الجذع. وقف هنيهة يتمطى مقوساً ظهره وشاداً كامل عضلاته وكأنه يعصر بدنه من التعب الذي بداخله. شيء ما تبدّل فيه، عرف هذا من دبيب النشاط الذي تسلّقه، إحساس قوي بالطاقة والوفرة، ويقين مفاجئ بأنّ القادم من الأيام سيكون أجمل من الفائت منها، دون سبب يعرفه.

سينطلق الآن، وسيذهب إلى القرية المتاخمة للنفود، ومنها سيذهب إلى الكويت، وسيبدأ حياته هناك كذئب..

اهتز كأنه اصطدم بجبل.. «كذئب».

همس كما لو كان يبصق الكلمة «كذئب»، تقلص وجهه

مستنكراً إياها. كيف جاءت بتفكيره وكأنها من صميمه؟ رجع إلى الحلم، وقال مهدّئاً تقزُّز نفسه منها: «مجرد حلم سينتهي أثره في نفسي بعد يوم أو يومين».

كانت جرّة قدم الذئب تملأ الأرض تحت الشجرة، تأتي وتذهب وتلتف هنا وهناك. نفض الفروة وارتداها، ثم علّق الزوادة على رقبته، ومال يعرج إلى البركة ليملأ القربة، وقبل أن يكمل توقّف يحدّق بجمال منظر الكثبان الرملية الحمراء المتمدِّدة على مسافة منه وهي تنعكس على وجه ماء البركة، كأنه ينظر إلى حفرة تطل منها دنيا أخرى. حاز شهيقاً عميقاً وزفره على مهل. متفائلاً بمنظر الأرض الممطورة والسماء الصافية، خمّن أن الرحلة ستكون آمن من ذي قبل: «ذهب الخوف، ذهب».

ما إن خطا أول خطوة إلى البركة حتى انتبه إلى كثيب صغير يدفن شيئاً تحته، ارتمت شرارة ريب إلى هشيم الخوف في قلبه، هل هذه نار مدفونة؟ وجد غصن أثل بجانبها، تصاعد دخان الشك فيه، محدّقاً بالكثيب بحاجبين يعصران عينيه، أخذ الغصن وحرث به الكثيب، فإذا به يجد فحمَ جمرٍ منطفئاً، همس بصوت مرتعش: « الموقد نفسه في الحلم»، تكاثف الدخان في داخله «قد يكون هنا قبلي ولم أنتبه له، أجل، كنت متعباً ولا طاقة بي لتمعّن المكان». وقف وخطا خطوتين يتفحّص المكان ثم.. ثم انفجر خوفه ممزقاً حنجرته: «يا ربي رباااااه» .. رأى أمراً اقتلع ثبات عقله، وماد بالأرض تحته حتى كاد يقع..

.. رأى آثار أقدامه على الأرض، لم تكن وحدها، كانت

تحاذيها آثار أقدام الذئب، تملأ الأرض هنا وهناك، أمسك رأسه ليخلِّصه من دورانٍ أخذ يلفّ عقله فيه، تمعّن بما يرى غير مصدِّق، هل هذه آثار الرقصة التي رقصها مع الذئب؟ إنه ليس حلماً إذن، وليس واقعاً حدث، إنه.. إنه.. هرب راكضاً وقد تعطّل تفكيره وخنس الصوت الداخلي لحديثه مع نفسه، وجعل يتمتم، وهو يلهث في جريه: «حلم.. حلم».

* * *

قطع مسافة طويلة مهرولاً بعدما عجز عن الركض، إلى أن أصبحت جبال الكثبان الرملية الحمراء قريبة جداً منه، ولمّا أصبح رمل الأرض تحته كثيباً يغرز بأقدامه، ترك الهرولة ومشى بإجهاد. كانت شمس الضحى تحترق على رأسه، وكان يرتدي الفروة رغم هذا، غير أن الهواء لا يزال لطيفاً، ينعش كدر أنفاسه، ويبرد عليه إذا ما فتح رقعتَي الفروة.

هدّأ التعب خوفه عمّا كان عليه صباح اليوم، وكان ما حدث ليلة أمس يغربل أفكاره طوال الطريق، فبعد توازن إحساسه راح يفكر بكلّ شيء وهو يمضي كالمطارد، فكر في غرابة الكون، في حقيقة الحياة، في حتمية الموت، أطباع البشر، استمرارية الزمن، اتساع الأرض، مفكراً في كل شيء لم يسبق أن فكر به لعله يفهم.. يفهم أي شيء.. لم يعُد متأكداً من شيء.. ما حدث أشاع الجهل في عقله على جميع ما كان يعرفه من قبل.. فإذا كانت الذئاب تتكلم فكلّ شيء قد تبدّل في نظره.. لم يعُد العالم

لديه كما كان.. كل شيء يمكن أن يكون نقيضه.. كسرت الحدود التي تسمى المعقول.. الآن عليه إيجاد معقولات أخرى ترتّب الفوضى المنبثة في عقله، شعر بأنّ كل شيء في الحياة رخيص وتافه، فكيف يكون لشيء لا يفهمه قيمة أو لشيء لا فائدة منه أهمية، تمتم:

«وتقف مثل الرجال وترقص أيضاً».

لا بد من ترتيب وإلا فسيُجنّ.. لأن الجنون في تصوره هو غياب هذه الحدود.. «آآآاه».. أي غدير الآن يعيده إلى ما كان عليه قبل أمس.. إلى ذيبان الذي كان يحب الحياة التي يعرفها جيداً.. ويفهمها بما يتلاءم مع نظرته لجمال الأشياء؟.. أي خنجر يمكنه القضاء على هذا العالم الغريب الذي هو فيه الآن.. عالم صعب.. فاجع.. لا شيء فيه يبدو كما هو عليه؟.. سيهرب.. سيهرب من كلّ شيء على وجه الأرض.. من الأشجار والناس والنار والذئاب.. من العقل والمعقول.. من الجن والجنون.. سيهرب من روحه التي أصبحت غريبة عنه.. سيهرب من المتاعب.. التعب.. التعب. لهث:

«متعب أنا الآن.. متعب.. فلتكن شجرة.. لها ظلّ.. يا الله أريدها الآن.. شجرةِ أتفيّأ ظلالها.. أضناني التعب.. مزّقني.. آه.. جسمي جسمي.. لا أستطيع.. والزوّادة والفروة ثقيل.. لمتان.. الآن أريد الانطراح.. تحت أي شيء يحـ.. يحجب عني الشمس.. حارّة.. حارّة يا ربي».

صار لهاثه فحيح ثعبان يحتضر، وشعر بأنّ عينيه ستخرجان من رأسه من هول الضغط فيه، غير هذا قام جوعه يتجاذب أمعاءه ليلفظها خارج جوفه، سار بخطى متوعكة، على هذه الحال الممسوسة بالجنون في الرمال الناعمة، يخلع قدميه منها كلما انغرستا أثناء المشي، حتى رأى جبلاً صخرياً، ما إن رآه حتى ثقل جسده ضعفين عمّا هو عليه، فجعل يرزح بحمله إلى الجبل.

كان أقرب لصخرة عملاقة منه لجبل، عملاقة ومتصدعة، وفي رأسها قطعة لم تسقط مع بقيّة الصخر الذي تراكم تحتها، قطعة بقيت ممتدة كلسان خارج من فم مغلق، عثر ذيبان تحتها على المُراد من الظلّ. ارتمى بجانب الزوادة والفروة، ومكث برهة يعلو لهاثه ويعلو إلى أن ثاب تدريجياً إلى طبيعته، شرب آخر ما تبقى في الزوادة، وفكر بالطعام، لا خشية من العطش، تركت أمطار البارحة في كلّ بقعة منخفضة بركاً نقية، الطعام هو الشيء الذي يستحق أن يخشى من أجله، خبت قواه، لا يشعلها إلّا الطعام، فخمس تمرات هذا الصباح وقطعة الأقط ترمّدت، ولم يعُد لها توقُّد في صلبه.

فكّر: «على الأرجح لم تعُد القرية بعيدة، سأنتظر ريثما تزول الشمس ثم أحمل على نفسي لأصل إليها، وهناك لكلّ حادث حديث».

شعر في تبدّل جديد، بأنه لم يخشَ الموت، طوال الهرب كان يهرب لينجو بعقله وليس بحياته، وبسرعة أرجع السبب إلى

أنه لم تعُد له رغبة بالاستمرار في الحياة، بماذا أفادته؟ هل تعلّم منها أن الذئاب تتكلم؟ هل كسب شيئاً غير زوادة وفروة ميت مرقّعة وخنجر غير حاد؟ تصور حياته كرماد ويديه خاليتين في يوم عاصف.

كان الرمل الذي افترشه ناعماً تعلوه طبقة طينية رقيقة من أثر المطر، تمدد عليه مرخياً رأسه على الفروة، مستشعراً الهواء الرائق يتخلل من نسيج ثوبه الذي سمل، إلى عضلاته التي تفحّمت.

اكتسح أعضاءه تعب ثقيل راحَ يفكِّك الأربطة التي تبقيها متماسكة، حتى ارتخى ارتخاءً شعر معه بأنّ جسده أصبح خرقة بالية، قلبه ينبض من كل مكان في ساقيه وفخذيه، تمدد على القاع، أخذ جفناه يثقلان، ويثقلان، ويثقلان أكثر، فقاوم بأن هزّ رأسه، غير أنّ التعب أعاد رأسه على الزوادة، ثم ثقلت جفناه مجدداً فتركهما مستسلماً يثقلان ويغمضان..

وأغمضا على ليل.. وسماء غائمة.. وأرض مبلولة.. وشجرة أثل تعلّق بها..

.. فتح عينيه فوجد نفسه لا يزال على الشجرة، والسماء فوقه مظلمة كما تركها قبلما ينام:

«لا أزال في ليلة البارحة، أم أنّ الغد لم يجئ؟».

رفع نفسه من الجذع.

«آآآه»، تأوّه هامساً وحدّث نفسه: «لم أعد أفهم شيئاً، هل

استيقظت وهربت إلى أن وصلت إلى الجبل ونمت عنده وأنا أحلم الآن أنني عند الشجرة مرة أخرى، أم أنني بعدما صعدت من جلستي مع الذئب غفوت وحلمت أنني هربت إلى الجبل والآن استيقظت. . أيهما الحلم وأيهما الحقيقة؟».

استطلع، كلّ ما حوله حقيقة، «كان حلماً» قال متنهِّداً، فلفّ صوت الذئب حوله:

- «لا حلم يوجد ولا يقظة».

أدار رأسه إلى الخلف، وجد الذئب مستلقياً كما تركه قبل أن ينام، وسأله:

- «لقد حلمت أنني استيقظت و. . ».

قاطعه الذئب:

- «وهربت إلى جبل بعد أن راعك أنني حقيقة ولستُ حلماً».

- «حسناً أنت تعرف».

- «وأنت لا تعرف».

- «لا أعرف ماذا؟».

- «لا تعرف أنّ الحلم أثناء ما هو حلم يكون حقيقة، تماماً مثل اليقظة تكون حقيقة أثناء ما هي يقظة».

- «هل أنا أحلم أم أنني مستيقظ؟».

- «لا تسألني».

- «أسأل مَن إذن؟».

- «نفسك. . اسأل نفسك ذيبان».

- «كيف.. كيف؟».

- «بماذا تشعر؟.. الشعور كما قلت لك، الشعور يحدّد ذلك».

أمسك ذيبان وجهه.. إنه الموت.. لا شيء غير الموت يفعل مثل هذا.

قال الذئب:

- «لا أعرف».

- «لا تعرف ماذا؟».

- «السؤال الذي ستقوله.. هل أنت ميت أم حيّ؟.. لا أعرف، لأنّ الموت والحياة هما شعورك بهما، إذا كنت تشعر بأنك حيّ فأنت حيّ حتى لو كنت ميتاً، وإذا كنت تشعر بأنك ميت فأنت ميت حتى لو كنت تأكل الطعام عند أهلك».

ضحك ذيبان بصوت عالٍ، ثم صمت ورفع رأسه ثم ازداد ضحكاً، إلى أن سعل، وسكت.

بماذا يشعر الآن، فكّر وحدّث نفسه: حي وميت.. لكن الموت ليس كالحياة.. بل أشعر بأنني لا أشعر بأنني.. أنا لست أنا..

.. أدرك أن التفكير يزيده جنوناً، كما يزيد الحطبُ النارَ ضِراماً، ورغم ذلك مضى عقله بتقليب الأفكار وبمدّه بالجنون أكثر فأكثر. ومن بين دوائر الجنون التي طاشت بها أفكاره عثر

على فكرة هي الأكثر جنوناً عن بقية الأفكار. . إن كان الذئب حقيقة فالحقيقة تموت، وإنْ كان حلماً فالحلم يبقى، ارتعشت يده وهو يُخرج الخنجر من الزوادة، شدّ قبضته عليه عازماً قتل الذئب، رماه بنظرة فوجده مستلقياً كما هو، وبنفَسٍ عميق استجمع به فُتات شجاعته وعقد الأمر على الذبح.

كان النزول من الشجرة صعباً، يجب عليه أن يكون منتبهاً وإلا فَلَتَ ووقع، وبحركات متأنّية هبط من الفرع مستعيناً بغصن قويّ، إلى الجذع، نازلاً منه إلى الأرض، ولمّا استدار وجد الذئب جالساً ينظر إليه وعلى جبينه تقطيبة عتب:

- «تريد أن تقتلني ذيبان؟ هل ينتهي ما بيننا هكذا؟ على الأقل انتظر الصباح ريثما أبرأ لقسَمي».

- «أريد أن أعرف هل أنت حقيقة أم حلم أم جنون اعتراني؟».

- «وما دخلي أنا؟».

- «أنت السبب، مذ رأيتك وأنا أشعر بالجنون».

- «أنت تشعر بالجنون لأنك تشعر بالجنون، ليس لأنك رأيتني».

تقدم ذيبان وقدماه ترتجفان، والخنجر مرفوع بيمينه، والذئب لم يحرّك ساكناً.

لم يشعر بشعور كهذا من قبل، بأنه مُقدِم على الخلاص النهائي من كل الشرور، حتى أصبح على بعد خطوة من الذئب، فقال الذئب:

- «أما وقد أقسمتُ على أنني لن أؤذيك فلن أحنث بقسمي، لكن لديّ طلب قبل أن تقتلني».

- «ما.. ما.. ماذا؟» تأتأ ذيبان والخنجر معلّق يرتجف بيده.

- «إذا قتلتَني.. إذا قتلتَني ذيبان.. كُلْني».

صعدت كلمة «كُلْني» إلى السماء وعادت ملتفّة ثم وابتعدت كصوت رعد بعيد.

- «كُلْني».

قليلاً وأقبلت كصرير ريح عاصف انتفض منه ثوب ذيبان وارتفعت جدائله:

- «كُلْني».

لم يعرف ذيبان ماذا يفعل، تحجّر متردداً في مكانه لدرجة أحسّ بأنه إذا تحرّك فسيتفتت. ظلّ جامداً حتى صرخ الذئب راعداً:

«اصحُ ذيبان، واقتله، إنه أمامك، هيّا، اغرسه في رقبته، الذئب الذئب».

فزّ ذيبان فإذا به عند الجبل، وما إن فتح عينيه حتى تعثرتا بالمكان ثم وقعتا على الذئب وهو يخاتله بغية مباغتته في نومه،

دسّ يده في الزوادة وأخرج الخنجر، كان نبض قلبه كإيقاع رقصة الذئب:

دُدُمْ دُدُمْ دُدُمْ دُدُمْ

دُدُمْ دُدُمْ دُدُمْ دُدُمْ

وصدى الأبيات يتردد بين جدران رأسه:

اقنب إذا تسمع قنيب

واضرب إذا شفت الضراب

تقدم الذئب، متجهّم الوجه، والتصق ذيبان بالجبل متحفّزاً رابطاً على قلبه:

إما حياتك مثل ذيب

وإلا تغالبك كالكلاب

بينهما أقل من خمس خطوات، زمجرة الذئب ترتفع، والإيقاع في قلب ذيبان يتسارع ويغدو رعداً، وبلمحة قفز الذئب عليه، وبحركة اتسمت بالثبات اندفعت يد ذيبان بالخنجر صوبه، وفي اللحظة التي مسّت مخالب الذئب صدر ثوبه، كان الخنجر مستقراً في رقبته، سقطا معاً من قوة الارتطام، ما إن تمّ الوقوع حتى فزّ ذيبان مرتمياً على الذئب ضاغطاً بيده على رأسه ثم سحب الخنجر وغرسه في نحره كما لو أنه معتاد على هذا الفعل:

إما حياتك تستطيب

وإلا ترى آخرتك تراب

سحب الخنجر فشخب الدم من مكانه راشِقاً وجهه وصدره بدم أحمر داكن، توقّاه بيده وابتعد ينظر إلى موت الذئب يأتي بأسمى معاني الجمال في عينه.

ضعفت قوة تدفّق الدم وراح يسيل على القاع، وقد ألمّت بجسد الذئب انتفاضات وتقلصات متتالية عند بطنه، ورعشات متواصلة اعترت فروته، إلى أن عوى بصوت متعب متقطع:

أووو.. وو.

ثم خرست عيناه، هامداً، وكفّ عن الجوع إلى الأبد.

استند ذيبان إلى جدار الجبل ينظر إلى الذئب غير مصدِّق أنه استطاع قتله، نما بداخله إحساس بالفخر، إذ قدّر أنه بهذا الفعل قد دخل إلى قصص البطولة، ذئب شرس وجائع لأنيابه ومخالبه القدرة على قتل ثلاثة رجال معاً من طينة حميدان يخسأ بضربتين من خنجر غير حاد في يده.

سيسلخه، فكّر بعدما أطال شروده في فروته المتماوج شعرها مع الهواء، وسيأخذ شيئاً منها يذكّره بأنه استطاع أن يكون قوياً.

استعاد بفعل شعور الافتخار رمقاً من قوته، وراح يسلخ الذئب ممزقاً الفروة بنصل الخنجر غير الحاد حتى تمكّن بعد عناء من الحصول على فروة الظهر كاملة ومعها جزء من الجنب الأيمن.

بينما هو يقلب الفروة ويستروح وبر البعير المبلول التي تفوح منها وجد أنه أخذ شيئاً من لحم الجنب، شريحة حمراء عليها نقط سوداء صغيرة، لم يطل التفكير، شعر بأن كل شيء معدّ سلفاً،

نزعها بأسنانه وراح يمضغها ويمضغها بقوة إذ وجدها عسِرة، فتقلّب طعم حلو ومرّ وحامض في حلقه، وما إن بلعها حتى شعر بها تتحرك في بطنه.

هبّ صوت الذئب مع الريح:
«كفو يا ذيبان».

تحط أم سالم أمامه على البركة، تخلص عينيه من شرودها في الزوادة، يمعن ذيبان النظر فيها، مُفيضاً على لونها الترابي وأطراف أجنحتها السوداء بإعجابه، إلى أن تطير محلِّقة في السماء باتجاه القرية.

والآن ها هي القرية تنتظره هناك، سيدخلها كـ«ذيبان» جديد، إذ إن ذيبان الذي كان قبل ثلاثة أيام تبدل، الآن هو ذيبان آخر بصفة يصعب عليه تفسير كيف أيقنها. أولاً سيتخلص من اسمه، يفكر: سعيد، سيكون اسمي (سعيد) وسأسعد. يهمس باسمه الجديد مجرِّباً وقعه على لسانه: «سعيد.. أنا سعيد».

ما إن ينتهي من نطق اسمه الجديد حتى ترفّ عينه الشمال، وسرعان ما ترف معها الأخرى، يشعر بدبيب شيء ما يخترقه، يظن أنها رعدة البرد، يدبّ الشيء دبيباً أكثر يحس معه بأنه ثعبان يسعى في أوصاله. يجزع من أنه ربما أصيب بداء البرد الذي يقبض ملامح الوجه إلى الميل جانباً، يوقن بعد مرور لحظات أنها ليست رعشة عادية، يحسّ بشيء يذبذب قدمه اليسرى في البدء،

ثم يترك القدم راجفاً إلى الساق، ومنه إلى الفخذ حتى يضرب عضلاته ببعضها، فيكمل الشيء مدغدغاً بطنه، يشهق لمّا يرى عضوه لأول مرة منذ صغره ينتفخ ويتصلّب دون ألم، يميل الشيء إلى الفخذ الأيمن، ينزل إلى أن يستفزز أصابع قدمه، ثم ينطلق صاعداً إلى البطن يدغدغه ثانية، فالصدر ينمله، ومنه إلى الكتفين يقبضهما قبضاً يحس معه بأنه سيفتح جرحه، يزحف الشيء داخله نازلاً صوب الذراعين يهزهما، فينسل إلى الكفين يرعدهما، ثم يرتفع إلى الرقبة ممتصاً معه كل أعضائه، يعتقد أن روحه ستخرج، تشتعل عروقه بحرارة تتأجج مع دمه وتبدّد شعوره بالبرد إلى الحرّ الخانق، يقف محاولاً فعل أي شيء، مكابداً الاهتزازات التي تقذفه يميناً ويساراً: «ما.. ما الذي يحـ.. حـ.. حصل لي؟». يبلغ الضغط الهائل رأسه، يضغط أفاعي مخه المتلوية، لسانه يتحرك، دون إرادته، وصوت غير صوته ينطق: «ليس هناك أنا أو أنت، ليس سوى نحن».

تجحظ عيناه.. يعرفه.. لا أحد غيره.. إنه هو.. يسقط مغشياً عليه.

* * *

يستفيق دون أي إدراك بالمكان أو الزمان، يجلس صامتاً برهة، ثم شيئاً فشيئاً يستعيد معرفته بحاله، الشفق يغمس جهة المغرب، ومن المشرق يتفشى الليل نافثاً سواده، يجد نفسه مُلقى مكشوف العورة للريح، يقوم متوعكاً، يرتدي ثوبه بعجالة، يلتحف الفروة ويلقي فروة الذئب على كتفه، ثم يحمل الزوادة على الكتف

الأخرى ويمضي حاثاً الخطى للقرية قبل أن تسلِّم السماء نفسها لليل.

لم تنِ حرارة دمه عن التأجج، قلبه يغلي منها، هل هو ذيبان أم الذئب أم هو كلاهما معاً كما قال الذئب على لسانه؟ ماذا سيحدث له في الأيام القادمة، ماذا لو خرج ذلك الصوت منه أمام أحد؟

يهرول.. يقول في نفسه:

«سأحتمل مهما جرى لي، أنا ذيبان، ذيبان فقط، أريد السلامة، سأبحث عن السلامة، لأنني جبان، أجل، أنا جبان وسأبقى الجبان الذي أعرفه، أريد أن أكون أنا وحسب».

يتوقف فجأة شاهقاً، وبصوت عالٍ:

«ماذا يجري؟».

يدرك أن شيئاً غريباً حدث، إنه صوت حديثه لنفسه، ليس صوته، بل صوت آخر، يشبه صوت الذئب، ويصدر من المكان نفسه الذي كان يصدر منه صوت شيطان الشِّعر الذي كان يأتيه كصوته.

يدور حول نفسه مرعوباً يفتّش المكان عن لا شيء، ثم يكمل مهرولاً وضربات قلبه تدقّ، كنجرٍ، صدره.

ينحدر مع منحدر، ويتابع طويلاً إلى أن يصعد مرتفعاً، يجهر، وهو يصب بصره على القرية:

«أنا ذيبان، لن أكون الذئب، لا أريد، أنا ذيبان».

يحيد عن أخدود مجرى أمطار، يهرول، ويهرول حتى توشك القرية، يرى رجلاً يؤوب خلف قطيعه إلى القرية. يُسر لدى رؤيته، يتّجه نحوه يخبُّ، «ياالأخو» يقول منبّهاً على وجوده كي لا يفزعه. . يكبح رغبته في احتضانه. يحييه وهو يقترب منه:

- «مساك بالخير».
- «مسّاك بالنور» يجيبه الراعي.
- «حلّ الليل، وأنا ابن سبيل، أريد مأوى يا الأجودي».
- «أبشر، تعال معي».

يمضي يتبعه، شاعراً بأن الطريق أمامه يتمهّد إلى الكويت. ينزلقان داخلَين القرية من زقاق يفصل بين صفوف بيوت طين خفيضة ومتلاصقة، رائحة طبخ تعلق بأنفه، يلفّه الأمان مستكشفاً حميمية تكاتف البيوت ببعضها، يشاهد بعض الصبية يقعدون على عتبة باب، يلوي رقبته عليهم مستشعراً رذاذ طمأنينة يبلل روحه الناشفة، يلاحظ نظرات الرجل تنشب في الفروة طيلة الدرب. ينقل مكان فروة الذئب إلى الكتف الأخرى ليشاهدها الرجل بوضوح، يفكّر: «سأحكي له قصتي مع الذئب بعدما آكل، لا بد أنه يتساءل عنها».

يسلك معه أزقّة ضيقة سرعان ما تنفرج إلى سكك واسعة،

ينعطف خلف الراعي وأغنامه وهو يتفحص الجدران والنوافذ، يتأخر عنه مستغرقاً النظر، ثم يلحقه مهرولاً.

لم ينطق الرجل بكلمة واحدة معه طيلة الطريق، ولم يستغرب ذيبان ذلك، قد تكون لهم عادات مثل عاداتهم في البادية ألّا يسألوا الضيف عن اسمه أو لماذا جاء إلا بعد مضي ثلاثة أيام.

يصل به بيتاً في جانبه حوش صغير في قلب القرية. يساعد الرجل في إدخال الأغنام إلى الحوش، وينتظر عند الباب عودته من داخل بيته حاسّاً بالراحة تغمر في قلبه.

هذه أول مرة يدخل بها قرية، ويشعر بأنه أخطأ طيلة المرات التي تهيأ له الذهاب إلى القرى ولم يذهب، ذلك لأنه أخذ من البدو كرههم للقرى، سمعهم في صغره يقولون إنها منبع الأمراض التي تفتك بالناس، ويحتكم الرجل فيها لرجل ليس من قبيلته.

يخرج الرجل ويسمح له بالدخول إلى المجلس.

يشعّ في المجلس نور سراج دافئ، يجيل ذيبان بصره في المجلس ذي النافذة الصغيرة على يمينه والعمود الذي يحمل السقف، وقد عُلِّق السراج في منتصفه، يشير الرجل عليه أن يجلس بصدر المجلس، يتّكئ ذيبان على أريكة من القماش الأخضر المحشو بالتبن، ويريح مؤخرته على مَدّة محشوّة بخرق قماش، يشمّ رائحة عطن محببة، لحظات ويرجع إليه الرجل ومعه

صحن خبز مدهون بالسمن، وثلاث بيضات باردة وجبن غنم، وطاسة متوسطة الحجم من لبن الماعز، يعتذر:

«السموحة، لا أحد بالبيت غيري، ليس عندي طبخ، وهذا ما لدي الآن، وغداً سأذبح لك خروفاً».

ينهمك ذيبان بالأكل بشراهة إلى أن ينهيه. يشرب طاسة اللبن فيأتي عليها كلها. يلهث قليلاً مستعيداً رضاه الداخلي عن نفسه. يسأله الرجل:

«هذه الفروة هل تعـ..؟».

«نعم».. يقاطعه ذيبان متحمّساً: «فروة ذئب، قتلتُه بهذا الخنجر»، يدخل يده بالزوادة ويخرج الخنجر.

ترفُّ عينا الرجل سريعاً بارتياب عند رؤية الخنجر، يحسّ ذيبان أنه أفزع الرجل، توشك ضحكته تنبجس من صفعة الخوف على وجه مضيفه، يحبسها ويُعيد الخنجر إلى الزوادة. لأول مرة في حياته يخاف منه أحد. يزيد مصمماً على إقناعه: «طعنته من هنا» يشير إلى رقبته، ويكمل بصوت فخور: «ثم طعنته الثانية في وريده فمات من لحظته.. انظر»، يكشف عن كتفه: «حتى إنه جرحني من هنا».

يهز الرجل رأسه، يرى ذيبان أنها هزة غير مصدق، فيكمل يريد تأكيد قصته: «فأكلت مضغة من لحمه، كنت جائعاً، طعمه حلو فيه حموضة ومرارة، لكن صدقني (يالأخو)، لم أطِق وجوده في بطني، تقيأته بإدخال يدي في جوفي».

«أهااا» يهز الرجل رأسه.

يقول، محاولاً قياس ردّة فعل الرجل هل سيصدق الجزء الأغرب من قصته مع الذئب:

«تحدثنا أنا وهو في الليل، وقتلتُه في الصباح لمّا هجم عليّ».

تزداد نظرة الرجل ريبة، ويقرر ذيبان أن يكتفي عند هذا الحد، وإلا فسيظن الرجل به الجنون، وعندها قد يطرده من بيته، لن يصدق أحد قصته مهما قال ومهما فعل، يغيّر الموضوع:

– «هل طريق القوافل قريب من هنا؟».

يشير الرجل باتجاه الجنوب:

– «هناك بئر قريبة من هنا تردها القوافل عادة».

– «لأنني أريد أن أذهب إلى الكويت».

– «هل لك حاجة هناك؟».

– «سأعيش هناك».

– «ستجد قوافل ذاهبة إليها ويمكنك أن تلتحق بإحداها».

تمرّ لحظة صمت مشحونة بالريبة، يقطعها الرجل سائلاً:

– «أين دفنته؟».

يُسَرُّ ذيبان من فضول الرجل حول قصته، يفسِّره بأنه صدقها:

– «لم أدفنه، تركتُ جثته عند جبل صخري قرب النفود».

– «حسناً سأتركك تنام الآن»، يقول الرجل، «وغداً تقصّ عليّ كيف قتلته»، يقوم آخذاً السراج معه، ويغيب مخلِّفاً الظلام في المجلس.

يلتحف ذيبان الفروة بعدما حطّ رأسه على المَدّة، ويروح

مفكراً بما سيفعله غداً. . أولاً سيسأل عن طريق القوافل التي تذهب إلى البصرة، ثم سيستفسر عن أحد يعرف الكويت ليستوثق منه عن هل هي صالحة له؟ وبعد ذلك سيطلب من مضيفه الطيب أن يمدّه بالزاد اللازم لرحلته، وسيقضي بعد غد في الراحة التامة استعداداً لتعب الرحلة، وفي اليوم الثالث سينطلق.

على الرغم من برودة الجو، يلقي عنه الفروة إذ لم يُطِق الحرَّ، عندما أكل قبل قليل توقف قلبه عن الغليان وبردت عروقه، وها هو يشعر بأنّ السخونة تعود مرة أخرى تفوّر دمه. ماذا لو عادت له الحالة التي تلبّسته عند بركة الماء غداً عند مضيفه، كيف سيصنع إذا تكلّم الذئب على لسانه؟ يدرك على نحو غريب أن روح الذئب سكنته، وذلك بلا تفسير أو عودة للمعقول الذي أجهده بلا طائل: «يا ربي سترك». . يدعو بصوت الذئب الذي بداخله ويغمض عينيه.

يمكث طويلاً مغمضاً عينيه دون نوم، قرض جفنيه الأرقُ، يجلس مستشعراً العرق الغزير الذي يتصبب منه، يحبو متلمساً النافذة في ظلام المجلس، ويفتح مصراعيها، ينعشه الهواء البارد ويخفف شيئاً من اضطرامه، يسعف عينيه قمر أول عشرة أيام من الشهر بنور فضّي رقيق، يرى فيه سكة ضيّقة تزحف إلى قلب الظلام، يُخرج رأسه ملتفتاً يميناً وشمالاً. الكويت ستكون بيوتها أفضل بالتأكيد، سيبني له واحداً مثل هذا، سيجعل ناره تشتعل ودلّته تفور، سيكرم الضيوف، أجل، سيترك الشِّعر الذي أتلف

حياته بغير فائدة، سيترك تتبّعه للجمال الذي فتق رقعة نفسه. الكرم، نعم، هذه هي عادات أهله، سيساعد المحتاجين إذا أصبح من الأغنياء. يغمض عينيه محاولاً تذكّر وجه أمه بعدما رأى أنها كانت على حقّ في أنه لم يكن جاداً بالقدر الكافي لرجل، لم يقدر، تغيب ملامحها عنه تماماً في ظلمات تشبه ظلمات الجحر، يشعر بلوعة ناطعة في حلقه، كيف ينسى أمه؟ ربما لأنّ ما مرّ به عرقل ذهنه، قد يكون المانع الآن هو التعب والإجهاد الذي أولاه عقله للأحداث الفائتة، غداً سيتذكرها بالتأكيد، يحاول تذكّر صوتها على الأقل، حزن شفيف يتملّكه، حتى صوتها يأبى. يحدّث نفسه هامساً: «كيف لي أن أنساها في موضع ستفخر به روحها، لو تعلم أني قتلت ذئباً ستفـ..».

.. يقطع حديثه مشاهدته ثلاثة سُرُج تجيء منقذفة من منعطف أقصى السكة في طريقها تجاهه، تكشف وراءها أربع قامات رجال.

يرتاب من طريقة مشيهم السريعة، يصله صوت مضيفه هامساً ومتقطعاً:

«.. عرفت أنه.. سوء».

يصيخ السمع ويلتقط صوتاً آخر تبتره الريح:

«كيف قتل ذئباً ولمّا..؟».

«ذئب» يهمس، ويتساءل مفكراً: «هل أخبر أهل القرية بأنني أكلت لحم ذئب، جاؤوا يسمعون قصّتي، آه، هل سأجد من يصدّقني؟!».

تقترب الأصوات منه.. يسمع بوضوح:

«والله لأقتلنّه».

يجزع من حرارة النبرة التي نطقتها، «ما الذي يجري؟» يتساءل بصوت الذئب في نفسه، ويبلغ سمعَه صوتٌ يتمزّق من الغيظ:

«قتل أخي ذئباً بخنجره وسرق فروته وجاء يفاخر بفعلته، والله لأقطّعن أوصاله». يتحدث صوت مضيفه:

«وقال إنه أكل لحمه».

يضيف آخر:

«ابن الكلب، يجب أن نأكل لحمه وهو حي».

يشعر بأنه واقع في موت محقّق ولا مفرّ منه، يغلي الدم في قلبه، ويتدفق قوياً في عروقه. يغلق النافذة قبل أن يصلها الرجال، يسمع أحدهم يهمس من خلفها:

«إذا وجدناه صاحياً فكأننا جئنا للسلام عليه ثم نطرحه أرضاً ونوثقه».

يشتدّ به الحر، ماذا سيقول لهم، وهل سيصدقونه؟

يحدّث نفسه بصوت الذئب:

«لم تعد الحياة تستحق السلامة».

يسمع صوت صرير باب في الخارج، يتلمّس الزوادة بسرعة، يُخرج الخنجر، يرجع إلى أن يلتصق بالجدار، يتوهج المكان بثلاثة سُرُج خلفها ثلاثة رجال أشداء ومضيفه، يقول صوت:

«مرحباً بالضيف الكريم».

يحسّ ذيبان بمخالب ذئب تنمو بأظفاره، يدرك سريعاً أنها ليست شكل مخالب وإنما معنى مخالب.

يقول مضيفه:

«ما لك واقفاً هكذا؟.. هذا أمير القرية جاء للسلام عليك».

يقترب منه أحدهم مادّاً يده، ومن خلفه يقترب البقية.

يرتعش نور السرج، يشعر ذيبان بالزمن يتوقف، وبالعالم يستحيل إلى جحر، جحر كبير ظلامه يحيل الأشياء التي يستولي عليها إلى لا شيء، وحان وقت الخروج منه، يصرخ:

«أووووووووووو»

عبد الله البصيّص

طَعْمُ الذئب

«ستحين الراحة بعد قليل».

يتنهد، ويأخذ نظرةً شاملةً على نفسه مُديراً عينيه بتمهل.. يجد أن وجهه أصبح مكدوداً على نحوٍ لم يخبَرْهُ على وجهٍ من قبل.. شاخت ملامحه.. شاخت حتى صار يبدو لنفسه أنه أكبر من ثلاثين سنةً بكثير، يتمتم مستغرباً:

«ثلاثة أيام فعلت كل هذا!».

الجزءُ الصعبُ من رحلته انتهى، في القرية سيعرف كيف يصل بعدما يأكلُ وينام. يجب أن يأكلَ وينامَ أولاً حتى يصفو ذهنه من ظلال الأهوال التي مرّ بها في الأيام الثلاثة الفائتة ليكون عزمُه أقربَ إلى الرشد.

«انتهى العذاب، سيذهب هذا الطَعْمُ غداً أو بعد غدٍ، كأنّني لم آكلْهُ أصلاً، انتهى.. انتهى».



الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com



تصميم الغلاف: مهدي عبده